فيدباك
Feedback
سناء عبد العزيز
الرواية الفائزة بالمركز الأول "جائزة الطيب صالح العالمية ٢٠١٧"

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

سناء عبد العزيز

فيدباك
Feedback

رواية

Scanned by CamScanner

سناء عبد العزيز

فيدباك
Feedback

رواية

منشورات بتانة
الطبعة الأولى
٢٠١٧

Scanned by CamScanner

الآن، أنت اثنان، أنت ثلاثة، عشرون،
ألف، كيف تعرف في زحامك من تكون؟

محمود درويش

Scanned by CamScanner

(١)

بين عالَمَيْن

لم تكن الفلسفات القديمة في الشرق والغرب وحدها التي انشغلت بفكرة الإنسان الكامل، أو التي فسرت العالم على أساس التناظر بين عالمين: العالم الصغير (الإنسان) والعالم الكبير (الكون)، بل فعلت البشرية بأسرها، منذ آدم وإلى أن تقوم الساعة! وإلا فما السرُّ الذي يستتر خلف أول خطيئة بشرية؟ هل كانت اللذة الكامنة خلف تذوق قضمة من الثمرة المحرمة؟ بالطبع لا، فليس آدم بذلك المحروم الذي جرى ريقه وتقلص دافعه إلى هذا الحد المتدني؛ إنه السر الإلهي الذي أودعه الله في النفس البشرية لغرضٍ ما، لم ولن ندرك كُنْهَه، إنها شجرة الخُلْد ومُلْكٌ لا يبلى.

لذلك نظل نحن أبناء المطرودَيْن من الجنة، مع كل ما نحمله سرًّا وجهرًا - خاصة عند احتدام المواقف الحياتية- من إدانة لفعلة أبَوَيْنَا التي أودت بنا إلى رحى الأرض الصلبة، تتوق أرواحنا إلى نفس الخطيئة الأولى؛ الخلود. هكذا نعاود نفس الفعل ونتلقى نفس المصير!

Scanned by CamScanner

في شطحاتي، حينما أنتبه لسنواتي الأربعين، حتى قبل ذلك، ربما منذ أن انتبهت للذة الكمال، الاختلاف، التفرّد، الجمال، كنت أحِيكُ الحكايات الساذجة وأطوّرها، أمضي في السرد قُدُمًا إلى أن تصل الحكاية عند لحظة الذروة؛ لحظة تفرد الذات، لحظة النشوة الحقيقية، أحس وقتها أن لي قدمين، وأنهما الآن تدوسان أرضًا ما، أستشعر باطنهما، أضغط بهما لأتحقّق من وجودي، رأسي ثابتة فوق عنقي كما لو أنه قد تحوَّل وتدًا، عيناي كشفان، وبصري حديد!

تنتهي شطحاتي نهاية واحدة، أنا الآن على وشك القيام بإنقاذ مجموعة من البشر، أو مدينة بأكملها، أو على وشك سبق يدفع الآخرين إلى الإشادة بي، أو على وشك إبداع متفرّد، غاية في التفرّد، حيث يقف التاريخ على أطرافه، ويسجل لقطته الذاهلة.

لا يفوتني أن أجعلهم جميعًا - أو أكتفي ببعضهم- يذرفون بعض الدموع من فرط عظمتي. وكما ترونني الآن، أمسح دموعهم الحقيقية قبل أن تفر من عينيّ ويراها زوجي ويسألني سؤاله الرخم:

- الله.. هو أنتِ بتعيّطي؟

- أبدًا يا أخي، كنت بخرّط بصلة.

كان هذا أحد أسراري التي لا أحدِّث بها أحدًا مهما كانت درجة قربه مني، ربما لفرط تدنِّيها، أو لفرط تفرُّدها، أو للاثنين معًا. ولعلِّي أظنّ أنَّ كلّنا هذا الإنسان، وإنْ تفاوتنا في الدرجة.

وفي الآونة الأخيرة انتابني شعور غريب، ومخيف؛ كنت أضع كل تصرفاتي خلال اليوم بأكمله تحت التشريح المجهري، لأكتشف تلك الكارثة التي

Scanned by CamScanner

قضيت فيها عمري، لقد ظللت أخاطب نفسي طوال سنوات عمري، أو أجعل الآخرين يتحدَّثون من خلال صوتي الداخلي، فقط من أجل تحقيق هذا التفرد؛ الاستمتاع بلذة الكمال، ولو على مستوى أحلام اليقظة، التي لم أكن لأفيق منها مطلقًا؛ أي أنني قضيت عمري أتحدث بيني وبين نفسي عن نفسي!

وللصدق، لم أكن أخلو من النواقص، مثلكم تمامًا، فأنتم تدركون بطريقة أو بأخرى، نقائصكم، حتى لو نجحتم في إخفائها بمنتهى الحيطة. ولعل غروري في بعض الأحيان أوْعَزَ لي أن السبب في ظهور نقائصي هو اختلاطي ببشر ناقصين، وكان عليَّ خلال أعوامي التي تلت، أن أتخلَّص منكم تدريجيًّا، وقد كان!

أنا الآن لا أختلط إلا بثلاثة أشخاص فقط، وليس هذا من باب التهويل؛ تلك الآفة التي لا تفارقنا جميعًا، نحن البشرَ الحكَّائين، من منبت الرأس حتى أخمص القدمين، منذ لحظتنا الأولى على تلك القشرة المخيفة، ونحن نحيك الحكايات، حكايات.. حكايات؛ بل كان الواقع المرير بحذافيره ودون أدنى تزيُّد.

ابنتي لأنها ابنتي وتلك غريزة الأمومة التي أودعها الله في قلوب الأمهات جميعًا، كم أدهشتني تلك الغريزة، تبدو لي كما سهمًا أصابني لحظة منبتها في رحمي، خيطٌ جديد ورهيف غاية في الرهافة يشحذ القلب، فيشعُّ من تلقاء نفسه، أن تجرِّب شعورًا جديدًا، عاطفة لم تكن ضمن مفردات القلب، جزءٌ يتشكل داخلك وأنت تحسه طيلة مراحله، تلك قدماها الصغيرتان ترفسانني في بطني، أصابعها تتشكل إصبعًا أصبعًا، هذا صوت نبضها،

Scanned by CamScanner

إيقاعاته الموغلة في الخفوت والوضوح، وجهي يخفت كلما اشتدَّ عودها في الداخل، ثدياي ينتفخان بتوهج، حلمتايا تتناوب عليهما كل الألوان، ورغبة عارمة في الآخر. أسميناها نور؛ فتقبل الله منا، ولعل اكتشافي لتلك العاطفة ومدى عنفوانها أحالني لموقفي من أبي وأمي؛ وخصوصًا أمي، و زاد الطين بلة.

كنت أمرِّر شريطًا من الذكريات الموجعة وأتعجَّب: ألم يودع الله تلك العاطفة في قلب أمي كما بقية الأمهات؟، كيف استطاعت أن تصبح دملًا في قلوبنا أنا وإخوتي بتلك الجسارة المخيفة؟، ألم تجرِّبْ مثلي هذا الوجع الذي أحسه في علاقتي بابنتي؟، يبدو أن العالم يمتلئ بالاستثناءات المربكة!

وزوجي؛ شقيٌّ الآخر، الصاحب والأهل والحبيب، رفيق الطريق المعبَّد بالعقبات، والخيبات الصغيرة، طيف الزمن الجميل الذي ألقى بظلاله على حياتي الكابية، على الرغم من نفوري من تضخُّم الذكورة في بعض تصرفاته الطائشة، ولا غَرْوَ في ذلك، فهو يحمل كالآخرين إرث الذكورة منذ آدم وحتى تلك اللحظة التي أحادثكم فيها.

وأمي بأمر سماوي لم يكن بوسعي اختراقه، وإن تمنيت ذلك من حبة قلبي التي طالما أرَّقتها تلك العلاقة غير العادلة، وبخاصة وأنا أحب السماء بشكل فريد، يمسُّ وترًا صادقًا لا علاقة له بين جنة ونار، وكذلك أخشاها لدرجة تثير غثيان أي انسان منكم يحترم نفسه.

وعندما أرتعد أمامها من شدة الخوف، أفضِّل ألّا يراني أحد وإلا احتقرني بيني وبينه، على الرغم من أن حقيقة الخوف من السماء جميعنا نمارسها، ولكني أشدُّكم جبنًا أمام ذلك الجبروت، فدائمًا ما أتوسَّل للسماء بابتذال

Scanned by CamScanner

وأذرف لها الدموع كالأطفال كلما أصابني مكروه. العين المحيطة التي لولاها لأودت بي الحسرة، كانت السماء بمثابة الحل المثالي أدافع به عن الذات كلما تنازلت أمام الآخر، لي إله يرى ويسمع، لن ينصت إلى لغوكم قبل أن يصدر حكمًا نهائيًا، لن تخدعوه بزيفكم مهما علت أصواتكم، لست بحاجة لمضارعة حجتكم بحجة مماثلة، لا ينسى مهما طال الأمد، وحتى وإن نسيت، كنت غالبًا ما أحل مشكلاتي بتلك الطريقة، تاركة الساحة للآخر يجعجع فيها كيفما يشاء.

أكان جبنًا، انهزامًا متوَّجًا بالإيمان، وسيلة تتحايلين بها على خوفك؟ أم كان زهدًا، حتى في الانتصار؟.

لماذا إذن حين تعاندك السماء، وتكيل لك الهزائم، تنظرين إليها بهذا الضعف، تستجدين عطفها بشتى الوسائل، تبلِّلين الأرض والسماء وهدومك بحفنات هائلة من الدموع، تشتبكين مع الخيبات القديمة وتجذبينها إلى المشهد الآني استدرارًا لمزيدٍ من الدموع، تعدينها بما لا طاقة لك به، تطيلين الركوع والسجود والشعنفة!

وقد يقول قائل: وما الضير في ذلك؟. لا حرج بين العبد وربِّه. ولكنكم لو رأيتموني وأنا أتشعتف بهذا الشكل المزري، ستدركون صدق خجلي من تصرفاتي الصبيانية تلك، ولعل السماء نفسها لم تعد تحمل لي أي تقدير!

أمي تقول إن رزقي واسع، وجملتها الشهيرة فيما يخص هذا الشأن:

- ده انت لو مسكتِ التراب يبقى دهب!

وللحق، ثمة ما هو صدق في كلام أمي، فعندما أبدأ عملًا ما، كان صاحب العمل يفرض لي راتبًا ضئيلا، ولكنه يضاعفه قبل أن أحصل حتى على راتبي

Scanned by CamScanner

الأول، فأنا أعمل كما يقولون كالحمارة، أو كثور في ساقية، معصب العينين، حتى لا يسقط من أثر الدوار.

وأحيانًا كان صاحب العمل يضاعفه عشرة أضعاف، مثيرًا حولي الضغائن. وعندما عملت بالتدريس، اكتشفت أن راتبي لا يكفي حتى الإفطار والمواصلات، ففوجئت بولي أمر أحد التلميذات يطلبني في الإدارة، رغم أني كنت لا أزال مدرِّسة جديدة، لم أكمل أيامًا في وظيفتي:

- كنا عايزين حضرتك في مهمة صغيرة.

- تحت أمرك

- العفو يا أستاذة

يتنحنح:

- تعرفي أماني.. سته تاني؟

يتدخل الأستاذ رضا صاحب المدرسة:

- أماني دي الأولى على المدرسة كل سنة يا أستاذة، الأستاذ فوزي يبقى أبو أماني وأميرة، كانوا عايزينك تساعديهم شوية بعد المدرسة.

دائمًا ما يوحي مظهري بالجدية، ولذلك فقد خصص لي الأستاذ فوزي أبو أماني وأميرة مبلغًا لم أكن أحلم به، فضلًا عن أن مدير المدرسة صرف لي مكافأة من أول شهر، وللأسف فقد وقعت في المحظور، وفتحت الظرف أمام زملائي وزميلاتي، وعرفوا أن راتبي يزيد عن رواتبهم بثلاثين جنيهًا، وحدث ما لا يُحمد عقباه، النفس البشرية التي لا تني تحارب الاختلاف حتى في صورة مبلغ تافه كثلاثين جنيهًا، تلاتين جنيه يا أستاذ، انت بقيت زبوني الليلة!

Scanned by CamScanner

ولكني لم أخيِّب ظن زميلاتي وزملائي الأعزاء، سألت الأستاذ علي، ناظر المدرسة، عن سبب تلك المكافأة، قال لي وهو يطبطب على يدي بكفه المرتعش:

- يا بنتي انت ما بتقعديش على حيلك طول النهار.

تعجبت،

- وماذا يفعل الآخرون!

فابتسم الرجل لي في شفقة،

- ربنا يسهّل للجميع،

أما مسألة أن يتحول التراب إلى ذهب، فهي من قبيل مبالغات أمي، فلو كان الأمر كذلك لاستطعنا أنا وزوجي المسكين المغلوب على أمره، أن نحل مشكلتنا الأزلية والتي لا تخرج عن نطاق الفلوس.

كم من المرات، تبدل الحال، ما بين طرفة عين وغمضتها، وبقيت مشكلة الفلوس كالهم الأزلي، كاحتقان حلقي المزمن، منذ أن تقابلنا إلى اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور.

لم يعاملنا القدر أنا وزوجي بنفس الآلية، فبينما تنغلق أمامه كل الأبواب، كانت تنفتح لي على مصراعيها، وبينما كانت عروض العمل تنهال عليَّ من كل جانب، ظل هو طيلة خمسة عشر عامًا؛ مدة زواجنا، يلهث خلف أية فرصة دون جدوَى ويتخذ أدوارًا صغيرة، أبدًا لم تكن له!

ولكني للصدق، كنت أجهل ما يدور في الخفاء داخل نفس زوجي نتيجة لتلك المأساة، وأغلب الظن أنه لم يكن يكترث كثيرًا لهذا القدر، كما بدا لي، أنا التي أتعثر في قراءة الآخرين، أقف أمام وجوههم بارتباك، محاولة

Scanned by CamScanner

استشفاف أية علامة، تمكِّنني من سبر أغوارهم.

ربما كان زوجي يتقطَّع إربًا من الداخل، فكما قلت لكم منذ قليل كلنا يحمل سرًّا ما، لا يحدِّث به أحد.

الجميل أننا آثرنا أنا وهو عدم التحدُّث بشأن تلك الصغائر.

كان لا بُدَّ من بدائل، هكذا تُجِدُّ النفس في البحث عن بدائل؛ فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه، والوحدة، وإن كانت اختيارًا، فلها تبعاتها على النفس، واقتراب الحوائط من مرمى البصر، يثير الوحشة في النفس، ويتسبب لي في وجومٍ بليد، ولذلك طلبت من زوجي أن ينشئ لي صفحة على فيسبوك، بعد أن سمعت عن سره الباتع، خاصة في ثورة يناير، انتشيت بكلمات أوباما وهو يُعيِّر شباب أمريكا، بالرغم من علاقتي السيئة بالتكنولوجيا، تردد زوجي قليلا وسألني:

- ليه؟

فحدثته عن اقتراب الحوائط، واصفرار وجهي، فاقتنع على مضض، محاولًا أن يضع لي تقييدًا ذكوريًّا، رفضته على الفور وفتحت له صفحته، لنقيم القيود على أساسها.

كان أول طلب صداقة يصلني من رجل إيراني صفحته تمتلئ بصور لأسلحة حادة؛ خناجر، سيوف، رجال ملثمون يتخذون أوضاعًا قتالية، حاجة لبش يعني، آي والله.

وقد يكون هو أو غيره الذي يظهر في تلك الصور كحيل العينين، كما الكهنة، مخيف خاصة مع تلك التحديقة التي أثارت رعبي، وذلك الخنجر المنقوش عليه رسومات غريبة، وعلى استعداد الآن بمنتهى النشوة أن يشق

Scanned by CamScanner

جسمًا ما، وبلا أدنى تردُّد، وبلا معاناة مثلي من أي ضعف بشري، وفوجئت برسالة منه، كانت باللغة الفارسية، هكذا همس لي جوجل، وأنا أكشف عن اللغة.

جوجل:

- تم اكتشاف اللغة، الفارسية.

أنا،

- ترجم.

لم أتلقَّ معنىً مفيدًا كالعادة، فطلبت منه، الصديق طبعًا مش جوجل، توضيحًا لرسالته باللغة العربية، فألغى طلب الصداقة على الفور، ويبدو أنه كان يخاطب شخصًا ما ظنَّه أنا وانتبه عندما لم أستطع فك شفرة الرسالة، وقد أكون واهمة!

وفي هذا العالم الافتراضي انتبهت لأهم ميزة؛ التخلص من الآخرين بضغطة واحدة، وقد لا تمكِّنهم من الاتصال بك مرة أخرى!

إلغاء الصداقة.

حظر هذا الشخص.

- لماذا تريد حظر هذا الشخص؟

- وانت مال أهلك.

- تم حظر الشخص، لن يتمكن هذا الشخص بعد الآن من الوصول إليك.

- أحسن!

كانت تلك الميزة بمثابة السحر بالنسبة لي ففيها يكمن الحل لمشكلتي

Scanned by CamScanner

الأزلية؛ كيف تتخلص من الآخرين دون عناء المواجهة؟ خاصة مع العملاء، فعندما يزعجني العميل بطلبات جديدة لم تكن ضمن المهمة الأساسية، التي اتفقنا عليها قبل الشروع في التنفيذ، أو يماطل في الدفع كنت أهاوده ولا أنسى أن أُحَمِّل رسالتي بمعانٍ إنسانية لكسب أرضٍ جديدة، فإصبعي بطريقة أو بأخرى لا يزال تحت ضرسه، وغالبًا ما كنت أنجح حتى مع أسوأ العملاء طبعًا، وحالما يقوم بالدفع ويترك لي فيدباك معتبراً، أنهي العقد بسرعة وأحظر حسابه حتى لا يتمكن من الاتصال بي مرة أخرى ولو على سبيل العتاب!

- س، اختر سببًا من الأسباب التالية لإنهاء العقد.

١- تم انجاز المهمة بنجاح.

٢- لم يعد العميل بحاجة لهذا العمل.

٣- لا أستطيع إنجازه في الوقت المحدد.

٤- وجدت المهمة مختلفة تمامًا عما هو مطروح في عرض العمل.

٥- غير ذلك.

بالطبع، غير ذلك.

نرجو منك توضيح الموقف لتساعد غيرك من الفري لانسر على فهم ما يجري.

- الحقيقة أنا تعبت، وأنت ثرثار!

- س، أنت على وشك أن تنهي العقد.

- يووووه!

- تم إنهاء العقد.

Scanned by CamScanner

فعلت ذلك مع عميل فلسطيني من غزة كان يعيش في فرنسا، كان يرسل لي ملف الترجمة مصحوبًا بكلمة أختي المحترمة أو الغالية س، ولا يفوته أن يتمنى لي في آخر رسالته البركة والتوفيق، وإذا صادف اليوم يوم جمعة كان يُذيِّل رسالته بهذا الدعاء «جمعة مباركة» وكنت بمجرد أن أجهِّز وسائلي، القواميس والملفات وغير ذلك، يلاحقني بالرسائل:

- أختي الغالية، إيه الأخبار؟

ثم بعد ساعة:

- وصلتي لفين؟

- طمنيني؟

إلّا أنني بمجرد أن أسلِّمه الملف المترجَم، يختفي لفترة حتى لا يدفع، أحيانًا

- والله يا أخت س رصيدي على باي بال صفر.

- والله يا أختي أنا في زيارة لأهلي في غزة.

- والله أنا أسامة أخو وليد، ووليد محصور في غزة.

- أمهليني عدة أيام.

- الشبكة عندي لا تعمل.

- لا زلت في غزة، والبعدا الصهاينة لا يكفُّون عن إطلاق النيران

- أنا الآن محصور في غزة ولا أعرف مصيري.

- أحتاج دعواتك يا أخت س.

حظر وليد.

- لماذا تريدين حظر وليد.

Scanned by CamScanner

- يا دي النيلة السودا

- هل قام وليد بتصرف ضايقك.

- الله يخرب بيت أهلك، احظره وخلاص.

- تم حظر وليد، لن يستطع وليد الوصول إليك بعد الآن.

- الحمد لله.

غالبًا ما يفعل العملاء مثل تلك التصرفات الصبيانية عند المطالبة، فالسيد وليد لديه جعبة من الأعذار أتوقعها وأنا أضغط على أيقونة موافق في العقد، ولكن ما باليد حيلة، لا زلت صغيرة في عالم الترجمة، وغالبًا ما كنت أطالبهم بإنجليزيتي الركيكة أن يعاملوني بالمثل، فحتى العملاء العرب لا يردُّون على رسائلي إذا كتبتها بالعربية، آل يعني مولودين أجانب يا خي!

كان العالم الافتراضي يتماس مع الواقع في نفس الآفة، يحدث ذلك مع الأجانب ربما لطول اختلاطهم بجنسيات أخرى، تعلّموا المراوغة في الدفع، أو ربما تلك الصفة عامة بين البشر جميعًا لا تستطيع أن تدركها إلا عند التعامل المادي بالفعل.

ولا عجب في ذلك، فحتى أقرب الناس إليك تتوجس وجهه الآخر إذا تعلق الأمر بالفلوس، ألم يفعل أبوك ذلك من قبل مرات، حتى في أمر مصيري كمسألة شقة؟، أنا ومن بعدي الطوفان!

تلك الميزة؛ إقصاء شخصٍ ما لا ترغب في وجوده مرة أخرى هي كل ما يعوزني، خاصة مع الأقارب، الأهل، الجيران، زملاء الدراسة، فهل يمكنني التخلص منهم بضغطة ما؟

هل بوسعي الضغط على أيقونة فأحظر أمي مثلا، أو أختي أو أخي أو

Scanned by CamScanner

أخت زوجي أو حماتي أو زميلتي أو جارتي أو صاحب البيت، أو عاملة السلم التي ترن الجرس بشكل جنوني كأنها تتوقع مني أن أظل وراء الباب...

ها هي تتأملني بوجهها البليد صامتة، بينما أرشقها بعينيّ المتسائلتين، ورأسي تتوق للعودة إلى الوسادة بأقصى سرعة، شيء ما يستوقفها عندما أفتح الباب، تظل تجول بعينيها في جسدي بأكمله إلى أن يتحرر لسانها أخيرًا:

- جردل ميه،

- مدام

- مدام

- مدام

- شوية صابون

- ماعندكيش خيشة

- يا ستّي اطلبي حاجتك مرة واحدة، وبعدين رنّي الجرس واستني شوية لحد ما البس هدومي، يعني أخرجلك بالشورت!

- حاضر

ولكنها دائمًا ما تكرر نفس الحاضر ولا تنفذها!

هل تتخذين موقفًا من كل هؤلاء؟ الحقيقة نعم، إذن فالخلل يكمن فيكِ، فأمتي لا تجتمع على ضلالة.

بماذا إذن نستطيع أن نصف الزّيْف، الكذب، التلوُّن، تضخُّم الذوات، السرقة، الطمع، سوء الظن، وما بالك بالخيانة، إفشاء السر، الاستنزاف، الجبن والمراوغة، الإلحاح، الصبيانية، النفاق، الإزعاج، التشفّي، الهروب في اللحظات الفارقة!

Scanned by CamScanner

كلّا، لم أكن تمامًا على خطأ، عندما اعتزلتكم جميعًا، كان لديَّ رصيد هائل من تلك الدناءات الصغيرة، وما آلمني حقًّا أني جاريت كل هؤلاء بعضًا من الوقت في دناءاتهم، فأحسست بالسمّ يصل إلى حلقي، وكنت فقط أحوشه عن القلب، فلم يزل بكرًا يتقيؤكم عند اللزوم، بمنتهى القرف.

تعلمت من زوجي الكثير في هذا الشأن، ربما تفاجأت أول الأمر وهو يوصد الباب أمام تطفُّل الآخر بمنتهى الحسم، وبلا مورابة. عاتبته، نهرته، حاولت استنهاض إنسانيته أمام وجوههم المُهانة، غير أنه أبى!

- ليس عليَّ تحمل سخافات الآخرين،

كان زوجي محقًّا، فعندما كنت أرى العواقب، وأجترُّ نفس الألم، كان دائمًا ما يذكِّرني:

- نصحتك، اشربي بقى!

يشبهون الحبايب،

حين يشدُّون منديلًا من العلبة جواري

يطوونه بعناية

يدسونه في بلسمهم

بعدها تموت أيديهم فوق جرحك

يكمِّمون فمك الذي يتزبد

وحين تلكمهم في أنوفهم القذرة

يشدُّون دموعًا،

تشبه دموع الحبايب

ويعتذرون!

Scanned by CamScanner

إذًا؛ فقد تجتمع أمتك على ضلالات، مع خالص الألم، وعليك وعلى آلك وصحابتك ومن تبع هداك الى يوم الدين أزكى السلام!

Scanned by CamScanner

ههنا،

في صحبة المعنى

تمرَّدْنا على الشكل

وغيَّرْنَا ختامَ المسرحيّة[1]

(١) محمود درويش

Scanned by CamScanner

(٢)

فري لانسر

ذات يوم، كنت قد أخرجت هدومي من الدولاب، دخلت الحمام وأخذت دُشًا، كانت تلك العادة أيضًا، من العادات التي اكتسبتها من زوجي، ولكني لم أكن بمبالغته في مسألة الاستحمام تلك، فقد لاحظت فور زواجنا أن زوجي يقضي في الحمام ما يقرب من ربع يومه، سواء ليقضي حاجته أو ليستحم، بل عادة ما كان يفعل الأمرين معًا.

فقضاء الحاجة كما يقول زوجي يجعله يعرق فيستلزم الأمر حمامًا، وهكذا كلما كان زوجي يعرق كان يأخذ حمّامًا، حتى كدت أن أخشى أن يتركني أثناء.. أثناء... لا داعي للبحث عن كلمة مناسبة، فلا كلمات مناسبة تروق لي لوصف هذا الفعل بالذات.

كان زوجي في تلك الأثناء يتصبب عرقًا، حتى في عز الشتاء، وتنزل النقاط الثقيلة إثر بعضها، خطًا ناعما ينزلق بسرعة حول جسدي العاري قبل أن تتساقط على الملاية أسفلنا، نعم أسفلنا، إلى أن ننتهي، ويلقي كل منا

Scanned by CamScanner

بجسده الذي ارتج بأكمله ألف مرة ومرة، إثر صعق كهربي.

كنت أشعر، كما لو أنه تم هدمي وبنائي بسرعة وتوالٍ مخيف، كل مسامّات جسدي تفتح ثغراتها، وتلقي ما بداخلها بعنف، ثم تلتقم وبرشفات هائلة شيئًا أثيريًّا، بلا لون، ولكنه يحمل كل الألوان، بلا طعم، ولكنه يختزن بداخله كل الطعوم، بلا رائحة، بيد أنه ينفذ في الصميم.

جلست يومها على طرف السرير أحدّق في جسدي العاري الذي يجلس قبالتي في المرآة، وتنثني فيه برزوات تشي بترهلي في تلك المواضع، أتبادل مع ملابسي نظرة بُغْض حقيقية، لم تكن لديّ رغبة في الخروج، كعادتي أفضّل البقاء داخل حيطان شقتي، أكره عملي في التدريس، أكرهه رغم أدائي فيه، ولكني كنت أنتوي منذ اللحظة الأولى التي تقدمت فيها للوظيفة أن أعمل في هذا المجال بشكل مؤقت، سنة بالكتير،

بس الحقيقة المذهلة،

إن الجميع في السلسلة

وفي الرقاب يا معلمين

أحبال قطيفة مدلدلة!

أنا شاعرة ياهووه ... شاعرة حتى النخاع، تلك النظرة التي تنعكس على صفحة المرآة لا تخص مجالًا آخر غير الفن، يدي التي ترتعش على الورقة لا تعني أني تخلّيتُ عن الشِّعر، ربما يكون هو الذي تخلى عني، وله كل الحق، فتلك التفاصيل المحشورة داخلي لم تكن لتتواءم مع طبيعته، وحين تصبح القصيدة هي آخر المهام، تنسحب على أطرافها، دون وداع، تتركك مع تفاصيلك وكراكيبك تتخبط فيها كيف تشاء، وتحلِّق في فضاء آخر.

Scanned by CamScanner

القصيدة!

كل ما يشغلك الآن.

كنتِ تنتظرين جلسة هادئة وفنجان قهوة،

ومزاجًا على حافة الأشياء

فيما تغافلك القصيدة وتنسحب على أطرافها

وأنت تُعدِّين الطعامَ،

حجرة الضيوف،

قميصًا لليلة دافئة.

تُحْكمين الغطاء حول طفلتك الوحيدة

كم من المرَّات سهوتِ؟

راودتك القصيدة

شممت احتراق الطعام

لعنت القصيدة!

ولكني وبرغم كل اللعنات لا زلت أتودد إليها بين الحين والآخر، أحس بالكلمات تحلِّق فوق رأسي، أسمع أزيزها في شحمتي أذنيَّ، أكاد ألمس الفراشات بأطراف أصابعي.

كنت دائمًا على وشك الكتابة، فقط على وشك الكتابة، ظللت هكذا، أقف عند نفس الوشك.

لم أرتدِ هدومي، كما ظللت أفعل لأكثر من خمسة عشر عامًا، طفح الكيل، حدّثتني نفسي بحسرة عن ماهيّة المؤقت من وجهة نظري، خمسة عشر عامًا في سلك التدريس، هل يعد عملًا مؤقّتًا؟

Scanned by CamScanner

أفيقي! الناس في الشوارع يدركون بمجرد النظر إليك أنك مدرسة، مشيتك، طريقتك في الكلام، زوجك الذي يلعن طريقة المدرّسين كلما كرّرت نفس الكلام بصيغ مختلفة،

- الله يلعن أبو المدرسين، يا ستي خلاص فهمنا.

تلك العلامات الحمراء التي يتركها القلم على ملابسك، تشي بك للآخرين، أنت مدرّسة حتى أخمص قدميك، نظراتك التحذيرية التي اكتسبتها في لحظات الحسم، أنت مدرّسة، مدرّسة ناجحة مع خالص الأسف، برافو، تمام، أحسنت، لقد وقعنا في الفخ!

كنت قد تركت العمل في المدارس الخاصة بعد تجربة مؤسفة ومهينة، قدّمتُ على إثرها استقالتي، وتنازلتُ عن كافة حقوقي كما هي العادة، حتى استمارة ٦ التي تسلّمتها لصرف تأميناتي، تركتُها تتعفن في درج المكتب، وظللت أعمل لنفسي بالحصة، الحصة بالساعة، والساعة تتصاعد عامًا بعد عام، والجدول يستدعي أن أقص خمس دقائق من كل حصة لاستيعاب زبائن جدد، ومع مزيد من السرعة في الانتقال بين حصة وحصة يمكنني أن أنجز خمس أو ست حصص في اليوم الواحد، والحصة ب.. جنيه، والأجانب بالدولار، والدولار ب.. جنيه، واليوم يقف بكذا، يعني الأسبوع بكذا، والشهر بكذا.

كانت الأعوام تمر، عامًا إثر عام، أتحسَّسها في وجوه تلامذتي وهم يكبرون، أستشعر ألمًا وحسرة عندما تتلاقى الوجوه بعد ركام من الأعوام، أدركه في وجوههم التي تشكّلت رجالًا ونساءً، فيما لا زلت أركض من بيت لبيت أو من حصة لحصة وعيناي لا تفارقان عقارب الساعة!

Scanned by CamScanner

والحقيقة أني لم أكن أحصي الزمن الذي يمر في المطلق، لقد كانت عقارب الساعة لا تعني لي سوى بدء وانتهاء الحصة، تلك الدورة القصيرة للزمن تعاد مع كل حصة ومع كل يوم، حتى نفد أكثر من خمسة عشر عامًا، كانت بالنسبة لي مقاطع من الزمن على هيئة حصص، وحفنة من ورق ملون!

أمس وأنا في طريقي إلى عملي، سمعت صوتً أنثويًا يناديني:

- مس، يا مس.

التفتُّ فرأيت سيارة حمراء حلوة بداخلها فتاة سمراء نحيلة. لم أتعرف عليها من النظرة الأولى، بدا على وجهي علامات الارتباك وأنا أحاول جاهدة البحث عن بيانات، كنت أفتش في ذاكرتي الخربة عن معادل لذلك الوجه الأسمر، لتلك العينين، لذلك الصوت الرقيق الهامس، حين قطعت أفكاري وهي تدفع الباب لي لأركب:

- شكلك مش فاكراني يا مس، أنا ريهام، ريهام ناصر ٣١٢ مدرسة ابن الخطاب!

انفتح نفق فجأة داخل دماغي، وبدأت أستعيد بعض النتف الصغيرة، التي طفت على حوافِّ الذاكرة، وأتبادل النظر مع وجه الطفلة وهي تجلس في الدكة الأولى وتتمسَّح في المقعد من شدة ربكتها، وأنا أدعوها لتتقدم على السبورة بابتسامة مشجعة.

- ريهام! نعم انتي ريهام، يا خبر إحنا بقالنا .. هو عدِّت كام سنه؟

أدارت سيارتها وهي تقول:

- كتير يا مس، أنا في تالته فنون جميلة.

- بقيتي واثقة من نفسك يا ريهام.

Scanned by CamScanner

- البركة فيكي يا مس، لكن انتي زي ما انتي ما اتغيرتيش خالص!

طوّحتُ الهدوم على طول يدي، وابتسمت من جرأتي، ثم عاودني القلق، ها أنت قررت في لحظة شجاعة نادرة أن تكفي عن الدوران، ما أسهل القرار! فهل فكرت في البديل؟

هذه الملابس لا تشبهك، ملابس امرأة متزوجة، وما أدراك ما معنى امرأة مصرية متزوجة، بينما داخلك لا زالت الطفلة، ذلك البيت يشبه صمت القبور بلا روح وفيه تسكنين مع زوجك وابنتك، هذا الوجه الذي ينظر إليك مجرد قشرة لا تخصك، خلفها تختبئين بحرص؛ حتى لا يتعرف عليك أحدٌ!

يبدو أنه كان يوم القرارات المصيرية، قررت تحويل مساري. كنت خائفة، وفي نفس الوقت مشدودة؛ هل أستطيع؟. أحسست كما السائر في طريق واحد طوال حياته، وقطع شوطًا هائلًا، حتى كلَّتْ ساقاه، وعليه الآن أن يستدير قافلًا متّخِذًا طرقًا جديدة يدرك أنها أكثر وعورة.

لم أكن أظن أنني أستطيع، فكل الطرق التي حاولت أن أسلكها في الآونة الأخيرة، لم تُفضِ بي إلى شيء، مطلقًا، لا شيء على الإطلاق، كمن يدور حول المكان.

دخلت في كورس التويفل، وتركته دون أن أحصل على شهادة، حاولت الحصول على الشهادة الدولية لقيادة الكمبيوتر، وتغيَّبت بعد ثلاث محاضرات، بدأت في الماجستير وتوقفت في منتصفه.

بكيت من شدة الخوف، كنت أخشى أنني اكتسبت من زوجي إحساسه بالعدمية؛ فهو غالبًا ما يبدأ الطريق، يخطو فيه خطوتين، ثم تراوده عدميته، فيقف مكانه.

Scanned by CamScanner

يقولون من عاشر القوم ميت يوم، صار منهم، ومن جاور السعيد يسعد، وقد أحسست بالخطر المحدق منذ أول يوم دخلت فيه بيت زوجي وتعرفت على أهله.

كانوا يشبهون أهل الكهف بلا أية مبالغات، أحسست بمجرد أن جلست أن ساعة الزمن التي تدق في قلبي توقفت فجأة، وبالرغم من ابتهاجي بتلك الغفوة الزمنية؛ هاجمني شعور بالخطر، ظل ينمو معي حتى وقفت كالملسوعة واستأذنتهم ورحلت، كنت أهرول وأتنصَّت على قلبي بين الحين والآخر لأتحقق من عودة الزمان وتدفقه في قلبي مرة أخرى.

أم زوجي امرأة فاقدة الحواس، كلما تربعت في مكان لا تبارحه، تقوم فقط للصلاة، تطيل فيها لدرجة المبالغة، كل ما فيها زائد حبتين، عندما تضحك تعود بظهرها قليلًا للوراء ولا يصدر عنها صوت، بينما تجلجل ضحكتي زي هند رستم، تستفز عندها وقار الأنثى، صوت المرأة عورة؛ فما بالك بقهقهة هند رستم!

تصدَّتْ لزواجنا بكل وسيلة، هربت إلى المسجد يوم الخطوبة وانشغلوا بالبحث عنها وكاد الأمر يتأجَّل، ولكني أدركت مكرها فهددتُ الجميع؛ إمَّا الآن وإمَّا لا زواج مطلقًا!

انصاع زوجي مجبرًا مؤجِّلًا البحث عن أمه، قرأنا الفاتحة على عجل وعاد إلى البيت ليجدها في انتظاره، فقد أغلق المسجد أبوابه في وجهها!

غير أن الحقيقة أنني استطعت، درست الترجمة، استقطعت من عملي ومن عمل زوجي أربعة آلاف جنيه، دفعتهم بحسرة للموظف وأنا أستوثقه:

- هتشغَّلونا من البيت؟

Scanned by CamScanner

ويهز الموظف رأسه الضخم بثقة ويرد بصوته الذي يشي بلحمية أنفه:

- أيوه طبعًا، حضرتك كنت هتحضّري الماجستير، بس من غير وعد بشغل، لكن أنا هعمل حالًا قاعدة بيانات وأسجّل اسم حضرتك، وبمجرد أن تنتهي الدبلومة هيكون عند حضرتك شغل ومن البيت.

اجتزت الاختبار الأول بأعجوبة، فأنا مدرسة لغة عربية، ولا علاقة لي بالترجمة مطلقًا، إلا أن الظروف تواطأت لصالحي، كانت القطعة المطلوب ترجمتها عن مثلث برمودا:

«مثلث برمودا هو لغز من ألغاز الطبيعة احتار الناس في حلّه منذ مئات السنين، ولا يزال حتى الآن رغم الافتراضات الكثيرة، أحد غرائب الطبيعة الذي تتحدّث عنه الصحف والمجلات والتلفزيون من وقت إلى آخر وتحيطه بهالة من الدهشة والغموض، هذا المثلث هو ذلك الجزء الغامض من المحيط الأطلسي الذي يبتلع بداخله آلاف السفن والطائرات دون أن تترك أي أثر، ولم يستطع أحد حتى الآن أن يفسّر بشكل مؤكّد سرَّ هذا الاختفاء الغريب»

استطعت تخمين المعنى بعد مشقة من قراءات سابقة، والحقيقة أن فكرة أن أكون مترجمة لم تكن تخطر لي على بال، إلا أن رحلتي مع الماجستير كانت عبارة عن مجموعة من الخيبات الكبيرة، خاصة مع تلك الأنوثة الطافحة على جسدي، والرجل رجل، حتى وإن كان أستاذًا جامعيًّا، وظلّ هذا أيضًا أحد أسراري التي لا أحدِّث بها أحدًا، وكأنّي أحس بالإدانة بشكل أو بآخر، فعندما سألني زوجي بعد أن لاحظ فتوري عند عودتي من الجامعة:

Scanned by CamScanner

- مالك يا حبّي، ساكتة يعني؟ هو الموضوع معجبش الدكتور ولا إيه؟

- أبدًا بالعكس ده عجبه قوي، حتى قاللي إيه ده.. باين عليّ مش سهلة.

- أمّال مالك؟ ما انتي بقالك أكثر من شهر مبطلتيش كلام عن الرسالة.

- أصل بفكر أأجل شويّه.

دفعت مصاريف الدبلومة على مضض، فلم أكن مقتنعة بدفع هذا المبلغ في عام واحد، إلا أنني دفعته، وقررت منذ اليوم الأول في الجامعة أن أتغير تغييرًا شاملًا كاملًا، خاصّة عندما تعثّرت في عباءتي وأنا أصعد السلم ووقعت على الأرض، أسرع إليَّ أحد رجال الأمن وساعدني على النهوض وأجلسني على كرسيٍّ وجلب لي كوبًا من الماء، وقتها وأنا أجلس مكاني أشعر بالدوار والخجل بينما يبادر بعض الزملاء بجمع أوراقي التي تبعثرت على درجات السلم؛ قرّرت أن أبدّل ملابسي،

انزعي عنك أي رداء زائف ألبسونا إياه، وتدثّري بالرداء الحقيقي للحدس الغريزي والمعرفة. نقي عوالم الروح التي كانت يومًا ملكًا لنا، حُلّي الضمّادات وجهّزي الدواء. دعينا نعود الآن؛ فالمرأة الوحشية تعوي، تضحك، تغنّي، إنها المخلوقة التي تحبّنا جميعًا. القضية بسيطة بالنسبة لنا، بدوننا تموت «المرأة الوحشية» وبدونها نحن نموت، ومن أجل حياة حقيقية ينبغي أن تعيش كلتانا.[٢]

- (واو)، أنا عايزة ألبس بنطلونات زي زمان.

- ليه؟

حكيت له ما حدث،

---

(٢) كلارسا بنكولا، نساء يركضن مع الذئاب

Scanned by CamScanner

- بصراحة أنا حاسّه إني لابسة لبس واحدة تانية.

انزعج زوجي قليلًا، إلا أنه وافق كعادته في النهاية، وعدت لطبيعتي الأولى قبل أن أصبح زوجة وأمًّا.

وبالرغم من مشكلة اللغة التي ظللت أعاني منها لدرجة البكاء، تميزت في الترجمة بشكل غير متوقع، واكتشفت أنني كنت أحمل تلك الموهبة داخلي دون أن أدري، كشفتْ لي الجُمَل عن نفسها، ربما تحت ضوء إلهي، وكثيرًا ما أدهشت المحاضرين، حتى أن أحدهم قال لي ذات يوم:

- كثيرًا ما أغبطك بيني وبين نفسي على لغتك الراقية!

زوجي قال لي: كنت أعرف أنك ستنجحين، دائمًا ما تنجحين.

غالبًا لا أصدق زوجي بشأن نجاحي، كما أنني لا أصدق الآخرين، تحدوني نفس المشاعر التي خبرتها للمرة الأولى عندما سألتني المدرسة، في الصف الأول الابتدائي، وقفنا صفًّا أمامها وهي تكرّر السؤال: أربعة زائد خمسة، طابورٌ من الوجوه الصغيرة الخائفة ارتصّت قبلي على السبورة، كان قلبي يدق بعنف من شدة الخوف، عيني مركّزة على الخرزانة المفتولة، المغطّاة بشريط أزرق من الجلد اللامع، أجرِّب وقعها على يدي في خيالي المرتجف، خاصة في جوٍّ قارس كهذا، كدت أبلع لساني من الرهبة وأنا أرد:

- تسعة.

لم أصدق تلك السباعية التي رنّت داخل جدران الفصل، وسمعها الناس في الشارع، الدور الأول، ١١١ أول فصل يقابلك بعد صف الحمامات التي تشبه الميضة، داخل مدرسة الرافعي الابتدائية، ببهتيم، أبلة آمال.

أحببت يومها أبلة آمال، حفظت اسمي! أنا الضعيفة الهزيلة حتى البكاء،

Scanned by CamScanner

شككت في الأمر، رحت أنظر إليهم وإليها بدهشة وذهول،

- صح ؟!، هه؟!، صح؟!

عاودني نفس الشعور وأنا أتسلّم شهادة تقدير، مدرسة ابن الخطاب للغات، تتشرف إدارة المدرسة بمنح الأستاذة: س لقب المدرسة المثالية، وذلك لما تقدمه من قدوة ومجهود رائع. ابتسمت في تواضع زائف وتأملت الطوابير التي تقف أمامي وتصفق السباعية، كنت أشعر بالخديعة، كدت أسألهم سؤالي الأبله: أنا؟ هه؟! ولكني أطبقت فمي واكتفيت بخجلي المصطنع، لم يزل يعاودني الشك كلما أعطاني العميل فيدباك مصحوبًا بكلمات رنانة!

ولكني عرفت الطريق، كيف يتسنّى لك إبعاد أذى الآخرين، كيف تحصل على السباعية، الفيدباك، ظلت تلك مهمتي الأولى والقاتلة في الحياة!

جاءتني المهمة الأولى كـ «فري لانسر»، أحسست بجدران شقتنا تتسع وتمتد لتصل إلى المملكة المتحدة؛ بلد العميل:

عزيزتي س

يسرني العمل معك في هذا المشروع، مرفق ملف الترجمة. أرجو مراجعته وتقدير الوقت المناسب لإنجازه. علمًا بأن الميزانية المقدرة هي ....، خذي وقتك في مراجعة النص، في انتظار الرد.

أطيب التمنيات

بارات داون

Bharat Dwen

كم عدد المرات التي قرأت فيها الرسالة، ابتسمت لبارات داون الذي يضع

Scanned by CamScanner

منظرًا طبيعيًا بدلًا من صورته، ابتسمت للشاشة بجزل وامتنان، وددت لو أحتضنها، أقبّلها، أقبض عليه من خلف الشاشة وأسأله سؤالي المعتاد: أنا؟.. هه؟ أنا ليه!

كنت أراجع العقد كل يوم، كلما استيقظت من النوم وقبل أن أغسل وجهي، أحدق في الأيقونة التي تحمل كلمة مُفَعَّل تحت تأثير هاجس لعين، فربما اتصل العميل بي أثناء نومي فلم يتلقَّ ردًّا، فألغى العقد، إلا أن شيئًا من تلك الوساوس لم يحدث، والحمد لله.

لماذا تنتابنا الوسواس حتى في تلك اللحظات الفريدة التي تأتينا على استحياء؟ ألا توجد فرحة خالصة؟ أم أنها خالصة ونحن المتشككون نذر عليها التراب؟ متى فرحت فرحة خالصة؟ لا أذكر. كلما عاودت الفرحة؛ عاود الظن الرجوع، وكأنه يشم رائحتها من بعيد، ويتتبعها أينما حلَّتْ.

أنهيت مهمَّتي الأولى كـ «فري لانسر» على قدر وسعي ووسع اللي خلفوني كمان، كنت أعمل ليل نهار وثمة طاقة غريبة تتملَّكني، حتى أنني عِفْتُ الطعام أو تناسيته، كلما انهمكت في عمل عِفْتُ الطعام، زوجي يتهمني بأنني مأخوذة؟ مرهوبة؟ لا أعمل من خلف الشاشة؛ بل أدخلها برأسي وقدميّ، أقطع المسافة بيني وبين العميل فتنطمس الرؤية حولي.

ونور تنظر إليَّ بعينيها المستديرتين وقد امتلأتا باعتراض مكتوم:

- يا ماما قلتي هتسيبي شغلك عشان تقعدي معايا، هو انتي كده قعدتي معايا؟!

أرسلت الملف لبارات وأنا في حالة رعب هائلة، يدي تفلت الماوس رغمًا عني، أغلق الملف وأعيد فتحه مرّات بلا نهاية، صدري يعلو حتى يكاد

Scanned by CamScanner

أن يصل لقبة السماء، ويهبط فتستبين ضلوعي التي كانت تنتفض كفرخٍ مبلول في ليل شتاء، أحوّل الملف بي دي إف، ثم لآر تي فورمات، ثم دوك، أية صيغة سأرسل بها الملف للعميل؟

ماذا يفعل زملائي؟ ماذا إذا كانت ترجمتي غير دقيقة؟ أو وجد العميل أي استهبال في الترجمة، هل هناك إجراءات قانونية قد يتخذها الموقع ضدي، يارب، يا كريم، يا رزّاق يا حنان يا منان،

عزيزي بارات،

سعدت بالعمل معك،

أرجو مراجعة المرفق، في انتظار المراجعة

أتمنى لك يومًا جميلا

س

إرسال

أرسلت الملف. سبق السيف العذل!

عزيزتي س

تسلّمتُ الملف بعدة صيغ، أرجو أن ترسلي لي الملفّات فيما بعد بصيغة دوك فقط، جارٍ فحصُ الملف، وسيتم الرد عليك والدفع في غضون ثلاثة أيام.

أشكرك على مجهودك

أطيب التمنيات

بارات داون

Scanned by CamScanner

(٣)

في بيت أبي

عندما تدخل بيتنا، ستشم رائحة ما، تتصاعد مع كل خطوة تخطوها في مدخلنا الضيق.

تستطيع أن تجتاز الموقف بخطوتين واسعتين وتنهي ذلك الشعور الذي ينتابك الآن، خاصة وأنا من موقعي هذا، قد تعكّر وجهي مثلك تمامًا، وتقلّصتْ معدتي.

لك أن تظن ما شئت عن مصدر الرائحة، ولكنك لن تصيب الهدف على أية حال. فأسفل بير السلم اعتادت أمي أن تضع الكراكيب القديمة والقصاقيص المتبقية من عملها، وهلم جرًا.

أمي خياطة، تستغل كل ركن في البيت في تخزين تلك الأشياء؛ تحت الأسرّة، أسفل تلك الكنبة، داخل هذا المكتب الضخم، فوق سطح بيتنا الذي يشبه خرابة هائلة.

ولا يحتاج الأمر لعين خبيرة لتقف على صدق كلماتي فمن كل ركن في

Scanned by CamScanner

البيت تبرز تلك الأشياء لتطل علينا.

أوعزنا إلى خالي حسني في إحدى زياراته أن يجرّب فتح الموضوع مع أمي وافق خالي. وكأنه يبحث عن حذائه رفع فرش الكنبة، فواجهته القصاقيص المحشورة أسفلها ككومة من القمامة:

- ايه القرف ده يا قطر (اسم أمي).

- نزّل الفرش واحترم نفسك يا حسنى.

وطبعًا حسني احترم نفسه وخد بعضه ومشى!

انتبه الآن لخطوتك؛ فقد تقفز إحدى الكائنات الزاحفة فجأة وتمزق وجهك بأسنانها الحادّة، كما مزّقت وجه أبي عندما انتفض من نومه أثناء مرورها السريع بجواره، ربما انتابها ذعر مفاجئ جراء استيقاظه المباغت، فتحركت غريزة البقاء داخلها وفعلت فعلتها الدامية.

استيقظتُ في تلك الليلة على صراخ أبي، هبطت السلم بقفزتين، كان هو جالسًا فوق سريره حيث قرّر منذ أكثر من عشر سنوات أن ينام وحده، ضاربًا باعتراضات أمي عرض الحائط:

- يا بابا سيبها تنام معاك على السرير، الكنبة قصمت ظهرها!

لا يردّ أبي، يهز رأسه علامة الاعتراض، ووجهه في البلاط.

استلمته أمي لسنوات، تسبّ وتسخط وتنبط بالكلام إياه:

- يا بو وسط محلول.

غير أن أبي لم يستسلم قط، فقد اتخذ قرارًا لا رجعة فيه، مهما كلّفه الأمر من شتائم:

- هي الشتيمة بتلزق!

Scanned by CamScanner

تلك كانت حكمة أبي!

وبرغم صغري فقد أدركت المغزى الجنسي المختبئ في ثنايا جملة أمي.

جففت الدماء التي كانت تنزف من جبينه وأسفل عينه وتعجبت من تلك الجرذان التي لا تتركه في حاله، وتتصرف معه بوحشية. ولكني رفضت وأنا في دهولة النوم أن أَجِدَّ في البحث لأخلِّصه منها، عذرًا، فأنا خوّافة، جسدي ينتفض لمجرد أن أرى أي زاحفة، تركته يتردَّى في خوفه، وصعدت شقتي بمنتهى الجبن!

بوسعك بعد أن تصعد السلم مباشرة وقد دوَّختْك الرائحة اللعينة، أن تكشف كل أركان الشقة دون أن تلجها؛ فبابنا كباب الدكّان؛ لا ينغلق إلّا وقت النوم، وتلك عادة الفلاحين أمثالنا ممّن نزحوا إلى المدينة بحثًا عن مورد رزق، بعد أن تقطعت بهم السبل في بلادهم، فتوقّفوا عن الزرع والقلع، وتعلّموا مهارة أخرى.

ستلحظ على الفور ضيق المكان؛ فشقتنا لا تتجاوز الثلاثين مترًا، لطالما قستها شبرًا شبرًا، وامتلأت بشتّى أنواع الإحباطات من تبديل الموقف، أزحت حوائط بتكلفة باهظة وجهد جهيد لتوفير عدة سنتيمترات تتيح لعينيَّ مجالًا أوسع للرؤية، ولطالما نهرني أبي:

- هتهدِّي البيت على راسنا يا بنت المجنونة، كان يوم اسود يوم ما سكنتي فوقنا.

المرأة التي تجلس في تلك المساحة

من السهل رصدها من مسافة قريبة

لذا..

Scanned by CamScanner

تزيح الحوائط بتكلفةٍ تسدِّدُها من عمرها،

فقط

لتدوس شبرًا جديدًا

كنت فعلًا مجنونة بنت مجنونة، عمرٌ يمرّ ولا شيء أفعله إلا زحزحة الحوائط وتبديل العِزَال من ركن لركن دون أدنى فائدة، فرغم عظم المجهود؛ هدّ، بُنا، شيل، حط، فلوس. كانت النتيجة مفجعة، كمن يحمل حجرًا، ويصعد به خطوة خطوة، حتى يصل إلى القمة، ثم يهوي به من علٍ، ليعود ويصعد به مرة ثانية، هكذا دواليك!

لأعوامٍ،

تبدل المشهد

السرير:

ستجعله في المنتصف

والكنبة بجوار الحائط

الثلاجة في ركن المطبخ

لتصنع كادرًا عبقريًّا

يليق بفنانة

...

فيما تدفع قطع الأثاث

ثمن رهافتها!!

يوم أن مات أبي اكتشفت سر توطُّن الحشرات والزواحف حجرته، لم

Scanned by CamScanner

يكن الأمر انتقامًا إلهيًّا، أو أن ما يجري داخل نفس أبي من هذيان كان له انعكاس ملموس، كما كنت أظن، تلازمني سذاجتي وأنا أفكر بتلك الطريقة، هل يدرك الآخرون طريقتي السطحية في التفكير كما كنت أدركها؟ أم أنني نجحت في إجبارهم على إعطائي فيدباك معتبر، محتفظة ببقية جبل الثلج مدفونًا تحت الماء.

تتبعت سرب النمل فوجدت قطعة من حلوى المولد، ورقة مطبقة حوافها على قطعة ملبن بالنشا، وملبن أحمر وأصفر بالمكسرات. أبي مغرم بالملبن، تصنعه أمي لنا في صاج الخبيز، وتغلفه بالنشا قبل أن تشقه بالسكين لشرائح طويلة، وتحت رأسه نصف رغيف فينو محشو بحلاوة طحينية به أثر آخر قضمة واسعة من فمه، كانت حواف سرير أبي أشبه بمخزن، بوسعي الآن أن أسمع صوت أمي يخترق كل تلك الحواجز الزمنية، معلنًا بقوة عن غيظها الهائل:

- هو بقّك ده مابيبطّلش يا راجل، على طول هرس هرس.

ها أنا اسمع الآن صوت هرس الطعام بين ضروس أبي يُطحن بعنف وبقوة مصحوبًا برشفة مياه طويلة ومنغومة، تساعده على الاسترسال في تكريعة هائلة!

كانت رأس أبي مربوطة بخرقة بيضاء تلتف من رأسه حتى أسفل ذقنه؛ فقد مات أبي وفمه مفتوحٌ تمامًا كما عاش، واضطرَّ الطبيب لضمِّهما إلى بعضهما البعض بتلك الخرقة البيضاء!

الفادح في الأمر ما حكاه لي زوجي وهم ينزلونه إلى القبر، لمح زوجي في زوايا القبر عيونًا متوهجة، وأسنانًا حادَّة لامعة، جيش من القوارض كان

Scanned by CamScanner

للأسف في انتظار أبي!

لطالما انتظرت رحيل أبي بفارغ الصبر، وأعترف الآن أمامكم وبلا خجل أنني قبل لحظة موته بدقائق، كنت أتضرّع إلى الله، أسأله وأنا ساجدة، رأسي فوق أرضه، وجسدي بين يديه، وروحي تئن من الوجع، كنت أصرخ مستغيثة بالسماء:

- أنقذيني من هذا الرجل، أنعمي عليَّ بمنّة السلام، روحي مكدودة وقلبي يهذي كالبلهاء، خلِّصيني من هذا الرجل،

كان عليَّ أن أتشاجر مع أبي غدًا، بعد أن وعدت الجيران بأنني سأحل الموقف، ولم أكن أتمنى أن أفعل ذلك، ولكن ما باليد حيلة، إما أن أتدخل وأردع أبي وإما أن يردعوه بطريقتهم، بعد أن كال لزوجة جارنا كومة من الشتائم، والرجل لن يسكت، اعتذرت لجارنا ولزوجته، ووعدتهم أن أعنف أبي، شريطة أن يبلعوا الإهانة!

بمجرد أن فرغت من الصلاة رن الهاتف:

- آلوو.

- أبوكي مات.

مات أبي وبيني وبينه قربة من الكلام

لم تصل بعد لحافتها،

إلى الآن أسمع نبشًا داخل القربة،

الكلمات تشرئب بأعناقها؛

لتكمل السطور.

عندما قابلت أبا زوجي الذي أصبح حماي بعد ستة شهور من هذا اللقاء،

Scanned by CamScanner

للمرة الأولى، توقفت عقارب الزمن بيننا، وقفنا أنا وهو مذهولَيْن، كلٌّ منّا يحملق في الآخر، وكأنه يسأله بصوت هامس:

أحقيقيٌّ أنت؟

كدت ألمس وجهه بأصابعي، كاد هو أن يفعل، غير أن يديه استدارت في اللحظة الأخيرة وتحسّست طرف ياقته بخجل طفولي:

- ليه كده يا بني؟

أخجلني خجل عم سعيد، عامل الأسانسير، انخدع بزيفي كالآخرين، أرهبه تأنّقي المبالغ فيه، فأسرعت وقبلته في خده.

ربما صادفت شخوصًا كعم سعيد في أفلام الأبيض الأسود، صادفت نجيب الريحاني، إسماعيل ياسين، علي الكسّار، حسين رياض، عبد الوارث عسر، جميعهم كانوا يشبهونه، بيد أن الرجل الجميل فاق كل أحلامي عن الإنسانية المفرطة!

تزوجت (واو)، إلى الآن تساورني الشكوك بشأن رغبتي في الاقتراب من هذا الرجل، وعلاقته بزواجي من (واو)، فقد كنت أستمتع ببراحه، وألقم ندوب الروح من منبعها الأصيل.

حسدت زوجي على تلك النعمة التي خصه الله بها، وعرفت السر الذي جعلني أختاره، رغم قلة الحيلة البادية عليه، كان (واو) يحمل أثرا باهتًا من أبيه، حبيبي عم سعيد، كان يتراءى لي كأثر من زمن جميل!

كم تمنيت لو كان هذا الرجل المفرط في بساطته أبي، تخيلت نفسي وأنا أنام على ساقيه القصيرتين هاتين، التي هدَّهما اللفُّ والمشوار، دفأت قلبي معه كثيرًا، كنت رغم ثقل دمّي أبدو كالريشة وأنا أتحدث معه، كان من

Scanned by CamScanner

هؤلاء القليلين الذين أدركوا خفة روحي الكامنة خلف هيئتي الثقيلة.

زوجة عم سعيد - حماتي يعني- على النقيض تمامًا، كانا كالآتي:

البساطة مقابل التكلُّف، العطاء أمام الأخذ، المباشرة أمام الالتواء، كانا كالنور يقف وجهًا لوجه قبالة العتمة!

حين تدخل بيتنا، ستلمح على الفور (قُهر)، لا تتعجب؛ فقهر هذا اسمها، أو كما يسميها أبي، خاصة إذا كانت زيارتك بعد العصر بقليل؛ يعني قرب المغرب.

تقف بنصفٍ عارٍ، قد يكون النصف الفوقي وقد تكون محظوظًا بالنصف التحتي، فرسة مكتنزة اللحم، أرداف مصقولة بعناية ومؤخرة هائلة كقمتي جبل، وفلقة تشبه الوادي بين جبلين، تحيلك بمجرد النظر إلى فعل الشفط أو مصطلح الجذب المركزي أو أسطورة مثلث برمودا، بينما لن يعجبك الكثير في النصف العلوي بكتفين هزيلَيْن نسبيًّا، وثديين متهدِّلَيْن، ورقبة معروقة، ووجه نحيف، وإن لم يخل تمامًا من الدفء القمحي.

غالبًا لن تحسَّ بوجودك؛ وهي تقف الآن بظهرها أمام حوض المطبخ؛ الحوض الوحيد في شقتنا، حيث يعدُّ من قبيل المبالغة إسناده إلى كلمة مطبخ، التي تعني بالإحالة وجود حوض للحمام، الحقيقة غير ذلك؛ لا أحواض أخرى في بيتنا، بل إن وجود حوض في شقتنا يعد من قبيل «الأَمَلَة»، ولا أملك مفردة أخرى مناسبة تصلح كبديل لكلمة «أَمَلَة»، غير أنها تعني شيئًا لم يكن متوقَّعًا قمت باقتنائه.

هذا ما استنبطته عبر مراحل نموي من استخدام أبويَّ لتلك المفردة، ومن المدهش أن عندي رصيدًا هائلًا من المرادفات المشابهة، ستأتي في موضعها

Scanned by CamScanner

من السرد، وتتسبب في احمرار وجهي بين الحين والآخر، خاصّة في المجتمع الأكاديمي، حيث تشي بك الكلمات وتشير بالبنان على أصلك وفصلك، فما بالك في عالم الترجمة وسط هؤلاء المتفرنجين، الذين تتلوى شفاههم بالكلمات، فيبدون لعيني كمشوهين، وتتخذ وجوههم أوضاعًا مزرية!

سوف تسمح لك الإضاءة القليلة برؤية لباسها التحتي الذي اتسع من أثر الاستعمال واهترأ عند المواضع الأكثر سخونة، ستفرك بضع حبات من المسحوق المتروك بإهمال فوق ركن قذر وعليه أثر الاستخدامات المتوالية من يوم أمس والأيام السابقة.

ستهرول بمجرد أن تنهي مهمتها اليومية وتنشره على حبل الغسيل دون الكثير من الحرص؛ فقط تضع أمامه فوطة متسخة لا يلبث أن يحركها الهواء كاشفًا للعامة لباسها التحتي، والغريب أنها لم تكن تأبه لذلك!

لم نكن متساويتين؛ أنا وهي، كذلك أمام القدر، انتبهت باكرًا هي لذلك، بينما لم أنتبه إلا بعد أن تراكمت اعتداءاتها عليّ لأتفه الأسباب، فأنا في هذا الشأن بطيئة التعلُّم.

أبي قال لي:

- بِتْغِير منِّكْ.

يندهش زوجي من ارتباكي حيال البشر، خاصة أمام دناءات أهلي المتكررة:

- انتي لسه مندهشة؟.

- نعم يا صديقي؛ لا أَنِي أندهش.

كانت (قُهر) تشدُّني من شعري عندما يحتدم الجدل بيني وبينها لأي سبب كان، يحدث هذا بشكل فجائي ودون حركة مسبوقة، ويبدو أن شعري

Scanned by CamScanner

كان نقطة ضعفي؛ حيث كنت أروح في نوبة إغماء طويلة، وأعود إلى الحياة بوجه مصفرٍّ وروح واهنة، أظل منكمشة على نفسي طوال اليوم، وكأنني لا زلت في نفس الدهليز الخافت، الإضاءة واهية والأحداث وكأنها تحدث داخل حلم، فيما تتلقَّى هي عدة ضربات من أبي وأخي على قرصتين من أصابع أمي في مناطقها الحساسة، أمي تقرصنا جميعًا من «لباليبنا»؛ يعني من الوركين، وكانت تلك القرصة من أكثر العقوبات إيلامًا، وكنت أتوجع لحد الاغماء، كلما تألمت رحت في غيبوبة، لا أعرف لماذا؟ وعندما أصبحت أمًّا وتخيلت أنني في لحظات غضبي الأعمى قد أقوم بتكرار نفس الفعلة مع ابنتي، أجهشت بالبكاء.

لم تكن تلك القرصات الموجعة بمثابة رادعٍ لقهر في أي يوم، فقد ظلّت تمارس نفس الفعل وتتركني في قبوي المظلم!

يفصل بيننا عامان، فهي تكبرني بعامين، بنفس الآلية تصغر كل منا عن أختها؛ فأبي من هواة الإنجاب، وكلما كبرت الصغرى وكفّت عن المناغاة المحبّبة لأذن أبي؛ كان أبي يطرح على أمي نفس الفكرة وتقريبًا بنفس الكلمات:

- بت يا قطر، عايز عيّل ألعب عليه.

ولا أعرف لماذا يستخدم أبي ذلك التعبير بدلًا من أن ألعب معاه، وأبي مات فلن أستطيع أن أتبين حقيقة الاستخدام.

وتلبي قطر على الفور وبعد تسعة شهور، نستضيف في بيتنا المخنوق فردًا جديدًا، تضعه أمي أمامها في لفّته القذرة، بينما تمدّد ساقيها بين فتحتي ماكينة الخياطة، غير آبهة كثيرًا لصراخه، حتى ينفطر من البكاء.

كانت قهر تصطحبنا جميعًا في الأعياد والمناسبات، أنا وأحمر وكربوناتو

Scanned by CamScanner

و(دقدق)، وكنا لا نذهب بعيدًا، كل واحدة منا تسلّم لها العيدية، ونذهب إلى سيدي الأعصر، تبدأ جولتنا بأبي فتحي بتاع الكشري، نشق ريقنا بطبقه الذي لم أجد لطعمه مثيلًا رغم بساطته، شوية مكرونه وصلصة ملونة وشطة، إلا أن حلمات التذوق لديّ كانت حادّة بدرجة مخيفة، وخاصة للشطة؛ لذلك، وبرغم اعتراضات زوجي ونفوره من ولعي بالكشري، ما زلت أبحث في كل طبق عن نكهة كشري أبي فتحي التي أصابتني باكرًا بشتى الأمراض، بدءًا من فمي وحتى فتحة الشرج!

نظرت أمي إليّ يومها نظرة ملؤها الشك، وأنا أخبرها بالدماء التي وجدتها على قاعدة الحمام،

- منين؟

- من مؤخرتي.

تركتني ولم ترد، ولكنها في عراكنا كانت تلمّح لي بأسلوبها الملتوي، وللحق لم أكن أفهم تلميحات أمي في تلك السن الصغيرة، فأنا بلهاء فيما يخص الأمور الجنسية، حتى أنني كنت أظن وأنا في الخامسة عشرة أن الأنثى تحبل من القبلات، إلى أن أفضت لي زوجة أخي الفلاحة بمسألة دخول الأعضاء في بعضها، أحسست برغبة عارمة في التقيؤ، ونهرتها:

- انتوا قللات الأدب.

- انتي عبيطة يا بت، ده حتى البيه بيعمل كده!

تعجّبتُ من جرأة الفلاحين، يتحدثون عن الجنس بألفاظه العارية.

لم يمر الأمر معي بسلام، فعلى الرغم من تخيُّلاتي الجنسية المبكرة، وعادة الاستمناء التي مارستها بإفراط في سن صغيرة، لم أكن أتخيل أبدًا عضوًا

Scanned by CamScanner

ذكريًا، وكنت أحس بالخجل والضيق حينما ألمح طفلًا عضوه مكشوف!

مع كل خطوة نخطوها، كانت قهر تراجع الميزانية:

- صرفنا كام؟

- فاضل كام؟

ودائمًا ما كانت تخطئ في الحساب، كانت طريقتها غاية في الإرباك والسذاجة، حتي بعد أن كبرت وتخرجت في كلية تجارة قسم محاسبة؛ لم تكن تجيد الحساب، وبالرغم من أنني تخرجت من آداب، وكل تخصصي ينحصر في الأدب واللغة؛ كنت أصحِّح لها طريقتها الملتوية، وأدلها على أقصر الطرق فيبدو عليها الاندهاش، كذلك يفعل زوجي؛ فأنا مولعة بالحساب منذ صغري، كما أن الرياضة تعدَّتْ عندي مسألة الهواية، فكنت أحيانًا أخترع طرقًا لحل المسائل، فيما ينظر إليَّ المدرسون بذهول!

ظلت الدائرة بلا نهايتها أكثر الأشكال الهندسية رهبة في قلبي، بينما كنت مفتونة بالمستقيم، أقصر مسافة بين نقطتين!

المهم أن كل خطوة كنا نخطوها مع قهر أنا وإخوتي الصغار، كانت بمثابة مشكلة جديدة بسبب حساباتها الخاطئة، ولطالما نكدت علينا في العيد وعدنا بلا فسحة بسبب حساب مغلوط، تحب النكد زي أمها!

أراد أبي أن يزوِّجها قبل أن تجتاز المرحلة الإبتدائية، فلها مؤخّرة عظيمة تؤهّلها للزواج، عزَّز ذلك عند أبي نتائجها غير المرضية في الدراسة، ولكنها، وبرغم سذاجتها البادية، صرخت وبكت ورفضت العريس.

كان أبي على وشك أن يكرِّر معها ما فعله مع (هُل) أختنا الكبرى، والقدر وحده أنقذها!

Scanned by CamScanner

(٤)

اسمي قهر

لم يكن يروقني هذا الاسم مطلقًا، رحمة الله على أبي، اعتاد أن يبتدع لنا أسماء كتلك، ليس بوسعك الاختيار، نأتي إلى هذا العالم محمَّلين بكل شيء سلفًا، وليت الأمر يقتصر على مصيبة الأسماء التي لا تعجبنا، كل ما حولي لا يعجبني، أكرهه بدرجة مخيفة، أبي لا يهمه سوى أن أواظب على دفع الشهرية، والسماء لا تعطيني إلا بالكاد، أعرف أنني لا أملك وجهًا جميلًا كبقية إخوتي، وإن كنت كما يقولون: مقبولة.

رأسي لا تعمل جيّدًا، والمدرِّسون السفهاء لا يرحمونني عندما أخطئ، يخرجون من فورهم من الفصل ويعودون بأختي (بنأة) التي تصغرني بعامين، لتحرجني أمام الجميع، وتجيب بدلًا مني.

والحق أقول: لطالما كنا ننتظرها أنا وزميلاتي في حصة الحساب والنحو، فيومها الدراسي ينتهي قبلنا بحصة، تدخل ملفوفة بخجلها الأبله، وجهها يحمرُّ كالقوطة وهي تعبر المسافة من باب الفصل حتى الديسك الذي أجلس

Scanned by CamScanner

عليه، وتشرع في الحل، وكأنها ساحرة، دائمًا ما تحوطها النظرات فجسدها الصغير الهش يبدو كحبة البندقة، ووجهها المرسوم بعناية يلفت نظر كل من تمر عليه، كما أنها تتمتع بطريقة مائعة في نطق الكلام.

كم تأمَّلْتُها وهي نائمة، تبدو كالساهمة، بينما أنام وعيناي مفتوحتان، وأرفس كل من ينام بجواري، يبدو أنني لا أستقر على جنب، أحاول جاهدة أن أركل الأشياء في نومي!

يطلبون منها أن تكرر نفس الكلام الذي نطقته لتوِّها، ففمها الممتلئ بأسنان كبيرة، يجعلها تنطق من مخارج أخرى؛ لذا كانت دائما تكرر نفس الكلمات، والحقيقة أن ذلك الأمر من الأمور التي طالما أدهشتني، فأسنانها الضخمة وشفتاها الممتلئتان من المفترض أن تكون موضع سخرية، علامةً على القبح، فكيف أصبحت علامة على الجمال، يبدو أن العالم فقد ذائقته!

نبهتني إلى حقائق كثيرة؛ منها لذَّة التعلُّم، وبالرغم من أنها تعدَّتْ الأربعين الآن، فلم تزل تواصل تعليمها، وبالرغم من أنها لا تروقني كثيرًا، فقد كانت تشرح لي النحو والحساب بطريقة مبسَّطة ومدهشة، وكانت تطرد زميلاتي عندما يصِبْنَنِي بالإحباط وأنا في الثانوية العامّة، تمسك القلم والورقة وتشرح، ظلت طيلة عمرها تشرح وتشرح ولا تكفُّ عن الشرح، يبدو أن تلك طبيعتها، إلا أنها بالرغم من ذلك كانت تثير حفيظتي بتبرُّجها المبالغ فيه وخروجها عن المألوف ومغامراتها العاطفية الخائبة، دخلت عليها ذات مساء، فوجدتها تخبئ سيجارة، ماذا أقول سوى إن ذلك فُجْر، كانت دائمًا تبدو لعينيَّ كفاجرة، رغم حدَّة دماغها؛ ضيَّعتْ نفسها في الثانوية العامة بحكاية خائبة مع سائق ميكروباص!

Scanned by CamScanner

فاتني قطر الزواج، هل تبطَّرتُ على الاثنين اللذين تقدَّمَا لخطبتي؟ كانا عديمي الشخصية، لا لون لا طعم لا رائحة، ولكنني في غاية الندم ولا زلت هذا البيت الكئيب!

أحمد كان كويس.

وكان له مستقبل، زمانه بقى محامي معروف.

زمانه اتجوّز وخلِّفْ طبعًا.

وعادل راخر كان ماله.

إيه يعني طيب شويه؟

الله يخرب بيت قلة العقل.

أعمل إيه دلوقتي؟

وأنخرط في البكاء.

كل أخواتي تزوّجْنَ في سنٍّ صغيرة، وبقيت أنا و(بنأة)، ولكنها كانت في الوضع الأفضل، دائمًا ما كانت بزيفها في الوضع الأفضل، فهي التي تطردهم، لا ترغب في الزواج، تغذي قلبها بتلك الخيبات مع رجال من المستحيل أن تتزوجهم، الغبية تعطيهم أدوار البطولة وهم لا يصلحون حتى في دور كومبارس، صحيح الحلو ما يكملش يا ولاه!

كان لديَّ حلمٌ أن أتزوج رجلًا ثريًّا، وأخلص بقى! ولكن من السفه أن أعتقد أن ثمة رجل محترم يجازف بدخول بيتنا، أو يربط اسمه باسمنا، كنت أخجل من أصلي وفصلي، وأنهر (بنأة) دائمًا وهي تتحدث بعادية عندما يسألها أحد وتقول الحقيقة، الحقيقة المرَّة! أنهرها بغضب شديد، حد يقول كده، ساكنين في حارة، أمي خياطة، إيه الحلو في كده؟ يا شيخة اتكسفي بقى على دمك؟

Scanned by CamScanner

- أقال عايزاني أقول إيه؟

- هو احنا ساكنين في حارة؟! إيه يعني الشارع ضيّق شوية؟

فكانت ترد عليَّ:

- وبالنسبة لموضوع الخيّاطة، تحبّي أسمّيها مصممة أزياء!

- هيييييييييه، إيه الظرف ده يا بت!

لم أكمل في التدريس، اشتغلت ثلاثة أشهر بالحصة في مدرسة حكومية، بعد أن تخرجت، ٦٠ جنيه في الشهر، لم أتقاضَ راتبي طيلة الثلاثة شهور التي عملت فيها بالتدريس، وجدت أبي ينتظرني يوم القبض:

- بيقولوا أول مرتب بعد تلت شهور.

ولكن أبي لم يصدقني:

- نعم يا ختي، انتي هتعمليهم عليَّا؟

يا له من موقف، أحمل لأبي أكوامًا من المواقف، لا زلت أتذكر وأنا أضع طبق الفول أمام أولادي أصابع أبي الخشنة وهي تجذب الطبق من أمامي وتهزُّه هزّاتٍ دالّةً، لِتَزِنَ ما تبقّى، كانت تلك الإشارة تجعلني أقفز كالملسوعة وأخرج على الفور إلى عملي مكتفية بما أكلت، كما خرجت على الفور، في هذا الموقف، وبعت خاتمي بستين جنيهًا، كنت أبكي طوال الطريق ووجه أبي لا يفارقني وهو يقول لي: نعم يا اختي انتي هتعمليهم عليّا؟

تبرّع أبو هيام؛ جارنا، وجاءني بعريس خليجي من إياهم، ولكنه، وليزيد الطين بلّة، سأل بوقاحة عن (بنأة)، قال لهم، أختها الصغرى!

كده كده، لم أكن لأتزوجه، بكرشه الواسع وعينيه الزائغتين، تشاجرنا مع أبي في ذلك اليوم:

Scanned by CamScanner

- انت عايز تبيعنا وتقبض علينا؟!

- ده جواز يا ولاد الكلب على سنة الله ورسوله، أمال هتقعدوا في أرابيزي!

بعد لف ودوران، جابت كل واحدة فينا عريسها في إيدها، تزوجت أنا زميلي في شركة بيبسي، شكله ابن ناس، غير أنه من نفس الشاكلة التي كنت قد رفضتها من قبل، لا لون لا طعم لا رائحة، لم يعد ثمة مجال للاختيار؛ كل الطرق تؤدي إلى روما!

تخيلوا، ظللت عذراء بعد زواجنا لأكثر من شهرين، البيه قضيبه لا يعمل، مربوط، إلى تلك الحجج الذكورية، بخَّرنا وقرينا، وتلطَّمنا بين الأطباء والمشايخ، كان زوجي متهيّبًا، استدار عدة مرات قبل أن يخلع هدومه، من الواضح أنه لم يعرف أنثى طيلة حياته رغم تجاوزه الثلاثين، اللهم أمه وأخته، وكانت حماتي تطلب منه أن يترك باب حجرتنا مفتوحًا، واحنا لسه عرسان جداد:

- أصلي بخاف أنا وأختك يا بيبي.

لم يمارس زوجي معي إلا عندما تصاعدت الأمور بيني وبين حماتي، وتركت لها الشقة تشبع بيها وبيه، ولكن زوجي حمل حقيبته هو الآخر وأخذني إلى شقتهم القديمة، في الجيزة، شقة صغيرة، حجرتان وطرقة، نمنا يومها على البلاط، وجاء الفرج أخيرًا!

أما (بنأة)، فقد صعقتنا جميعًا باختيارها. دخلت علينا ذات يوم بصبي؛ مجرد صبي، أصغر منها، وفي يدها علبتان من القطيفة الحمراء، قالت: الشبكة!

كلنا كنا نعرف أنها هي التي اشترت شبكتها من مالها الخاص، فأي عين تستطيع أن تستنبط أن هذا الصبي لا ولن يملك ملّيمًا أحمر، حتى أن مسألة

Scanned by CamScanner

زواجها بهذا الشكل أثارت ريبة الجميع، وكانت موضع تندُّر.

رفض أبي على الفور، عرض عليها ثلاثة خيارات؛ الطبيب الذي كان يعالجها. كانت قد أصيبت بمرض غريب قبل موضوع خطبتها هذا، استيقظنا من النوم جميعًا وأخذنا نحملق فيها، وجهها منتفخ، وعيناها بلون الدم،

- ايه مالكو؟ فيه إيه؟

- بصِّي كده في المراية.

تحسَّستْ وجهها برعب،

- ليه؟ فيه إيه؟

حاولت النهوض بسرعة فلم تطاوعها ساقاها مطلقًا، حاولت، وحاولت، وعندما أزاحت الغطاء، وجدناهما مفروشتين بدوائر حمراء وملتهبة!

نوع نادر من الحمَّى الروماتيزميّة، ظلَّ الطبيب يتحدث معها طويلًا، كان يبدو عليها أنها تمرُّ بحدث جلل، ولكنها لم تنطق واستمرت في العلاج لفترة، وفوجئنا برغبته في الزواج منها:

- دكتور يا بنت المحظوظة.

نظرت إلينا باستهتار، كثيرًا ما يزعجني استهتارها، نظرة السخرية البغيضة التي لا تفارق عينيها، اكتسبتها من الروايات البوليسية التي كانت مفتونة بها؛ أدهم صبري - رجل المستحيل- إلى غيره من الهراء!

المهم أنها بمجرد أن أفاقت من تلك الكارثة، رفضت خيارات أبي، طب أحمد أهو زميلك، ومدرس أد الدنيا، وشقته جاهزة في بيت أهله وبالعزال، وشايل قرشين على جنب.

- هاشتري عربية، عشان متمشيش على رجليها يا عمّي.

Scanned by CamScanner

ولكنها حسمت الأمر بموضوع الشبكة!

هل كانت تخفي شيئًا؟ وأين ذهب الآخر، آخر خيباتها في الرجال، أراه يحوم حول بيتنا، ليل نهار، هل انتهت علاقتها به؟

كنا نعرفه، كان زميلًا لها في الندوات التي تحضرها كل جمعة في قصر ثقافة بهتيم، وكنت أعرف أن بينهما شيئًا ما، وكلما لمحني كان يتصنّع صدفة ما ويسألني عنها.

عندما كنت أخبرها لم تكن ترد، تمتلئ عيناها بالظلام، وتصمت!

رفض خطيبي بالطبع اقتراحها، بأن نعمل حفل زفاف مشترك، طب ده من عيلة، وضيوفه ناس محترمين، وده باين عليه من عيله واطيه، يعني ازاي؟

وأنا وافقته، فلتتحمل نتيجة اختيارها ولا تحمِّلنا هذه الفضيحة!

تزوَّجت في قاعة فخمة، مناصفة بيني وبين زوجي، تعودنا أن نتقاسم كل شيء بالتساوي:

- انت النص وأنا النص.

إلى الآن لا زلنا نسير على نظرية التنصيص تلك، لي حسابي في البنك، كام ألف لا راحوا ولا جم من أيام الشغل، وشوية سمسرات من هنا ومن هنا، وهو حسابه مع أمه لا أعرف كام، لا أعرف سوى راتبه الذي حدّد لي جزءًا منه كمصاريف للبيت.

تزوّجت (بنأة) بدون فرح، سُكِّيتِي يعني، تشاجرت مع الكوافير عندما بالغ في تزيينها:

- يا بني مفيش فرح ولا يحزنون، هِدّ الزفت اللي انت عملته ده

والراجل غضب ورمى بالمشط، ونبّهها أنها مجرد دعاية للكوافير، ولم تدفع مليمًا:

Scanned by CamScanner

- لو هدّيتوا هتدفعي حساب الكوافير.

حاجة تصعب ع الكافر؛ فبعد كل هذا الصولجان وعرسان رايحه، وعرسان جايه، تتزوج هكذا.

تفاجأت يوم زفافها؛ وجدت دولابها على فيض الكريم، يا مولاي كما خلقتني:

- ولا كيلوت، ولا سانت، إيه ده، أمال هتلبسي ايه؟

- مش هلبس، هقلع بس.

دفعت كل ما كان معها في الشقة، باعت الشبكة، ١٠٠ جرام دهب، وباعت دهب أمي، أمي نبهتها من الأول هترديهم جرامات قصاد جرامات، حتى هدومها القديمة، تهرَّأت من شيل الرمل والزلط والأسمنت، ودخلت بدون منديل يوحِّدْ ربنا، آه والله!

الجيران الذين كانوا يتعاملون معنا بموارية، كانوا يتبعونها بأعينهم الذاهلة، وهي تحمل الطوب الأحمر في أروانة وتصعد الدور الرابع، تعبئ بيديها الرمل في البستلة القديمة، وتنثني تحت شكائر الأسمنت، ٥٠ كيلو، يا نهار اسود!

خرجوا في شرفاتهم يوم زفافها، فيما يشبه التحية، أضاءوا المصابيح، وأطلقوا الزغاريد، وصفّقوا كما لو أنها حفلة تكريم لا حفل زفاف!

ظل الناس في شارعنا يعيِّرون أولادهم لوقت طويل:

- بنت، بمية راجل، علِّتْ بيت أبوها وسط البيوت!

وظل (واو) التافه موضع حسد، ربما إلى الآن:

- ضربة معلم يا معلم!

Scanned by CamScanner

(٥)

بحران يا صديقي

مش معقول،

أبدًا أبدًا مش معقول

القدر اللي هداني لحبك

يوم م الأيام

م الأيام

يبقى عزول!

فهل يكون؟ كلما جاءت الريح معاكسة، يراودني السؤال عينه؛ فتتداخل الأزمنة: لو حكينا يا حبيبي نبتدي منين الحكاية، دا احنا قصة حبنا ليها أكتر من بداية.

أنا الآن أجلس في قصر ثقافة بهتيم، في البوستة القديمة، السماء تتولى عني توزيعَ ندف فوق رؤوس العالم، تبلل الأسطح والشوارع وخصلات شعري المصفف كالعادة بعناية.

لم يكن يقلقني بلل شعري ربما للمرة الأولى يا صديقي؛ فقلبي مهموم

Scanned by CamScanner

بحقائق مخيفة سوف أسردها عليك بالتفصيل فيما بعد، وأنت تضع يدك فوق كتفي لتنبهني لوصولك فيما أخاطب السماء، ملجئي الأوحد، كانت وحدها تعرف أين يكمن الداء اللعين، طول الجرح وكفره.

رحل الجبناء وتركوا ظهري مكشوفًا، الحالمون الجدد، جاءوا بخيلاء يسحبون أعنّة جيادهم، لكنهم فرُّوا كالجرذان عندما لمحوا عراكًا قرب نهاية المنحنى، كنت أسألها عن بصيص من الضوء، ففي آخر أحلامي كان عليَّ أن أصعد درجًا لمكان تعرّفت عليه داخل الحلم، ها أنا أصعد سلالم ملساء لأصل إلى ساحة تشبه التراس أستطيع أن أتبيّن الشرفة التي كان ينبغي أن أطل منها، لغرضٍ ما، لم يكن بوسعي أن أتعرف عليه داخل الحلم، كان مضبّبًا كما الذكرى، ولكني كلما صعدت سلمة ضاقت المسافة بين الدرابزين و الحائط، فهل كان عليّ أن أهرول يا صديقي؟.

هرولتُ كمن يدرك انفلات اللحظة الراهنة. هرولت بأقصى ما يسعني، والدرابزين اللعين يتبع هرولتي بمثلها، ها أنا محشورة داخل الحلم بين حائطين!

سألتك عن الندوة، فقلتَ لي:

- مفيش ندوة النهاردة.

قمت من مكاني، ثم جاءني خاطر فسألتك:

- وانت إيه اللي جابك؟

فأجبتني بعينين محمرّتين من لسعة البرد:

- عشان أشوفك.

ربما في موقفي هذا وجدتك ساذجًا يا صديقي، فأنا أعرفك بالكاد، ألقي

Scanned by CamScanner

عليك تحية عابرة بين الحين والآخر، أحس بمحاولاتك الساذجة للاقتراب مني منذ وقعت عليَّ عيناك، ولكن ماذا يفعل كل من حولك غير ذلك، كنت كقطعة الحلوى ولم أستطع في أي مرحلة من مراحل عمري أن أحوش عني أرجل الذباب، للجمال ضريبته يا صديقي، وقد دفعتها أضعافًا مضاعفة تحت سمع وبصر السماء!

أعرف أنك ستستغل الموقف، وبينما أرسل لك بزاوية عيني كلمة واحدة؛ هيهات، تؤكّد لي عيناك الصافيتان كنبع ماء؛ لا لهيهات.

وهذا ما حدث؛ فها نحن ننتقل بخفة وقدرية إلى مرحلة أخرى. كنت تختلق الأعذار يا صديقي من أجل صدفة لا منطقية، تنتظرني عند كل باب أخرج منه كما القدر، وحين كنت أسألك تتحجّج بأصدقاء وهميين، دائمًا ما تكون في طريقك إليهم، والحقيقة التي لا يمكنني نكرانها الآن أنك كنت محبًّا مثاليًّا، لطالما انتظرته، وخذلتني الأماكن!

- لازم أشوفك.

- ليه.

- عندي كلام عايز أقوله.

- ليس بوسعي مقابلتك.

- خمس دقائق لا أكثر.

هل كنت تبكي حقيقة كما حملت لي أسلاك الهاتف، قبل خمسة عشر عامًا، أم أن تلك لا تعدو كونها محاولة جديدة لاصطيادي تحت أسماء لا زال لها وقع في قلبي؟

وبرغم تشكُّكي في نواياك أتيت، وأنت طلبت لي كوبًا من البرتقال، لا زلت

Scanned by CamScanner

أحسُّ بمذاقه، قدَّمه لي صديقك القديم أحمد فارس، كانت تلك مهمته في هذا المكان، طبعًا عشان ما تدفعش يا لئيم!

أحمد فارس كان عامل شعره بَنْك، فاكر البَنْك يا (واو)، أنا كمان كنت بعمل شعري بَنْك وأنا صغيرة، أكشكشه بالمشط وأفرد فوق الكشكشة خصلة عريضة فيعلو على شكل بنك، أحمد فارس كان لابس قميص فسكوز، عندما أراه الآن لا أصدّق ما يجري لنا في تلك الحياة المخيفة!

أتعرف أنني شكوتك له ذات يوم، وأنا في إحدى تلك الحالات، التي لا تني تلوح في الأفق بين حين والآخر، طيلة رحلتنا المضطربة.

استمع إليّ أحمد فارس للآخر بصمتٍ مطلق، ربما كان يفضّل أن أتحدث مع زوجته؛ منعًا للفتنة، بعد أن أطلق لحيته وارتدى الملابس البيضاء القصيرة التي انتشرت في الآونة الأخيرة، أعرف أن أمّك كان «مُنَى عينها» أن تزوجه لأختك عفاف، خاصة عندما اشتغلت معه في الحضانة، حاولت أمك سحبه بطريقتها المبالغة في إظهار العفَّة والتديُّن، ولكنها لم تنجح كعادتها، وتزوج قريبته ليضاعف من حسناته.

لم يخبرك أحمد فارس بشكواي عندما زارك في المحل، آثر الصمت بعد أن عرف بعودتك إلى البيت، فهذا معناه أننا تصالحنا. لكن مشينا وكملنا، مشوار الحب ووصلنا.

يومها، يا له من يوم يا (واو)، صاحبك في هذا اليوم نظر إلى وجهي نظرة دالّة، عرفت منها أنك ادعيت علاقةً ما بيني وبينك، ولم أتضايق يا صديقي فالكل يزيد في كل شيء وأنا أبص إلى وجوهكم المزيفة ببلاهة لا أملك غيرها في الوقت الراهن، أجلس أمامك وبيننا كوبان، يقيسان المسافة بيننا

Scanned by CamScanner

بدقة صارمة، كما اعتدت أن أحسب المسافات، ما الذي التمع في عينيك العسليتين بعد الرشفات الأولى: بحران من العسل. هكذا كنت أردد داخلي، بينما ثمة قوة غير منظورة تطفو فوق المكان والزمان لِتُوَطِّنَّي داخلك، هل لَانَ وجهي الغاضب؟

بحران يا صديقي

ربما لا تصدقني

عيناك بحران..

حليب بلون العسل

فيما أنسحب شيئًا فشيئًا

تاركة في كوبي رشفتين

وحدك تعرف مصيرهما.

لا شك أن هذا ما حدث؛ فها أنت تمسك يدي، وأكتشف أن للجسم طاقة، أمسك بها واتركني على راحتي أتمرغ في مجالها الأثيري، أقبضها بأصابعي العشر، كما لو أن روحي تفلّتت من عجلة الجاذبية، وتتحوّل الحقائق العلمية - التي طالما ولعت بها- إلى واقع، أحتفظ بأبعادها الحقيقية في عقلي، بينما أترك لقلبي خاصِّيَّة الحُلم، فيضاعف من الأشياء قدر ذائقته، كان دِفْؤُك مخيفًا، كما المغناطيسية، المغناطيسية التي لا تدرك قوتها الناعمة إلا وهي تسحبك إلى الداخل بحسم، لا تخييل في ذلك، بما أنني شاعرة، محض مغناطيسية عند أقوى نقاطها؛ عند القطبين كما يظهر في الرسم التوضيحي في كتب العلوم، ها هي ذرّات الحديد الهشّة تتشاحن لتلتصق بعنف، كما الطلقة!

Scanned by CamScanner

إنها الحياة في زخمها، بعيدًا عن كل ما تخيَّلتُه وأمعنتُ في رسمه داخل خيالي الهزيل، ها أنا ألمُّ أطرافي كمن انتابته مشاعر يُتْمٍ موحشة، كمن ضلَّ، وتناوبت عليه الطرق، كمن ظل يقاوم الدموع باستماتة، ثم انفجر إثر ضغطٍ محتوم، أتكوَّم داخلك بلا رجعة، على مرأى ومسمع من الجميع. أقول الصدق، بلا رجعة يا صديقي، فإلى الآن وبرغم كل التقلُّبات والمياه الغاشمة التي جرت في النهر، لم أزل هناك، عند نفس النقطة المربكة، وبيننا كوبان، شيء لم يزل مذاقه على طرف لساني، ألوكه بين الحين والآخر، بملء فمي، لا يفوتني يا صديقي، وأنا عند الذروة، أن أقيس المسافة بينهما!

عيناك تتَّسعان

حليبٌ بلون العسل

فأنسحب شيئًا فشيئًا..

أخلع حذائي دون وعي

تغسل باطن قدمي،

تفركه بأصابعك النحيلة

تلك علامات الطريق،

وهذي الخربشات،

جرحٌ قديم

صديقي (واو)، لي أيضا معجمي في الأسماء تمامًا كأبي، على الرغم من أن اسمك يبتدئ من هنا؛ من براح الدائرة التي تنحني للداخل لتحوط بقية الحروف، فأنت لا تمثل لي من الحروف سوى هذا الحرف الرَّحْب الذي يُنْطَق بمساعدة الشفتين فقط، الشفتان، وما يدريك ما الشفتان، هل

Scanned by CamScanner

تقبّلني أم تبلعني؟

أتعرف، الجميع يمتلئون بالغيرة وأنا أناديك ب(واو)، ذكرًا كان أو أنثى، أعرف لماذا، ولكني ابتسم وأنا أتوقع تساؤلهن التالي:

- أمّال أنا أنادي واحد زي جوزي ازّاي؟ اسمه .... ؟ تفتكري أقولُه إيه؟

أنت إلى الآن لا تدرك ما أفعله في لحظاتنا، ولكنني أصرّح لك للمرة الأولى حين أضمُّك إليَّ بعنف وأُعَشِّق جسدي في جسدك، صدري داخل صدرك، وبطني في أمعائك، تاركة هذا التيار المتوهّج يتجوّل في فتحاتي على مهل، على مهل يا صديقي ليصل إلى أماكني القصيَّة أكثر فأكثر، حتى يتمكّن من الشقوق الجافّة، فلتدع سوائلك وروائحك في تلك الفجوات، مزيدًا من الوقت، فربما تلين حروفها الخشنة وتلتئم على بعضها!

تعالى تعالى

نقول

لغيرنا

أنا وانتا

إزاي قدرنا

نبعد عن أي عذاب

ونعيش على طول أحباب

نبعد عن أي عذاب

ونعيش على طول أحباب

Scanned by CamScanner

إننا جميعًا نفيض شوقًا وحنينًا إلى الحياة الوحشية.
بَيْد أن ترياق الحضارة لا يترك لهذا الحنين منفذًا،
إلا في أقل القليل.
تعلَّمنا أن نشعر بالخجل من مثل هذه الرغبة،
تركنا شعرنا يسترسل ووارَيْنا به مشاعرنا.
غير أنَّ ظلَّ المرأة الوحشية ما زال ينسلُّ خلفنا، ويكمن في أيَّامنا
ولياليا.
وبصرف النظر عمَّنْ نكون؛ فإنَّ الظل الذي يهرول خلفنا
هو في النهاية يمشي على أربع.[٣]

---

(٣) كلارسا بنكولا، نساء يركضن مع الذئاب

Scanned by CamScanner

(٦)

اسمي (بنأة)

اسمي (بنأة)، أو هكذا يناديني أبي، أنا وأخواتي الخمس، منحنا أبي أثناء حياته تلك الأسماء: (بنأة)، (هُل)، (قُهر)، (أحمر)، (كربوناتو)، (دقدق).

البنات فقط، أما أخي فلم يحظ بشيء، ولم يَنْمُ بينه وبين أبي سوى المناطحة؛ صراع الديكة!

ربما لا تحمل لك تلك الأسماء معنىً ما، تحتاج أن ترى وجوهنا وتعيش معنا لفترة، وحده أبي من يستطيع تفسير أمر معجمه اللغوي، فهكذا كان يرانا بعينه الوحيدة، كان موقفي غاية في السخف حينما انتبهت لأصابعه تغوص داخل جفنه وتقتلع إحدى عينيه، وتضعها أمامه في كوب من الماء، وقتها عرفت سر صفائها الدائم، حيث لا سحابة من احمرار ولو طفيفة كما في عينه الأخرى، كانت طوال الوقت تبدو في هذا الصفاء الثلجي!

بدت لي وكأنها تحدّق من داخل الماء في حبّة قلبي، وتسبّب لها تلك الانكماشة. خرجت مني شهقة، قدرت غضبة أبي وكشّته وسبّني على طريقته في سرّه، سرّه

Scanned by CamScanner

المسموع، أخذت ألاحقه بالأسئلة، بعدها كفَّ عن اللعب معي؛ لاحظ بعينه السليمة أنني كنت أتمعَّن كثيرًا لأحصي الفروق بين عينيه، تلك لعبتي المفضلة؛ إحصاء الفروق بين الصورتين!

أفشت لنا بعض نساء العائلة بطريقة لا تخلو من الخبث سرًّا، أثناء إحدى الزيارات اللعينة، أمي هي التي فقأت عين أبي في إحدى مشاجراتهما، ظللت أبكي وحدي في الليل مستترة بالظلام، حابسةً صوتي بكل ما يمكن لجسدي أن يحتمله، كنت بين الحين والآخر أمسِّد حلقي بأصابعي كأم، وكأن بوسعي أن أسكت هذا الاحتقان، ربما في هذا اليوم كرهت أبي وأمّي معًا وبلا رجعة!

غير أن الزمان وحده أثبت براءة أمّي؛ فقد لحقت العين الأخرى بأختها بعد ثلاثين عامًا، وظلَّ أبي يندب الاثنتين معًا حتى لحظة موته!

حُلَّتْ مشكلتي أخيرًا، لن يكون عليَّ التعامل مع بشر بشحومهم ولحومهم وعرقهم وأرواحهم الكريهة التي تندفع من كل الفتحات، خاصة مع تلك الحاسة الحادّة، التي تعمل فيَّ كيميائيًّا، فيتقلص وجهي وتنكمش معدتي، وتُلقي بكل محتوياتها للخارج، أبي يقول: معدتك خفيفة، عندما يجبرني على الأكل ويقرّب اللقمة من فمي عنوة:

- لقمة واحدة، زُؤْمَة.

ودائمًا ما يعلِّق زوجي على مفردة زُؤْمة:

- صحيح فلّاحين.

أبتسم بخيلاء:

- أيوه طبعًا فلّاحين، أمّال زيّكوا ما لناش أصل!

زوجي يكره البيض المسلوق في الفطار، لا يحب البيض في هذه الصورة.

Scanned by CamScanner

يفضِّله - أومليت - يعني مولود في بُقك أومليت يا خي !!

والواقع زوجي عنده حق، فأنا أسلق بيضًا كثيرًا وأرصُّه في باب الثلاجة، يعني مكان للبيض المسلوق ومكان للبيض النيء، فللبيض المسلوق طعم قديم.. لا يعرفه زوجي!

عندما كان أبي يسافر كل تَلَاتْ لبلدتنا، كان يأخذني معه، يقرفص أمام طشت البيض والسمن البلدي، يفرك السمن بإصبعيين خبيرين، ويمضغ نتفة منه في فمه الواسع، وينتظر حتي يبلعها، ثم يوزن رطلين.

أقف جواره وهو يلم جلّابيته بين ساقَيْه المقرفصين ويتحسس رقبة البطة قبل أن يوزنها، يحملها من جناحيها الكبيرين، فأحسُّ بألم أسفل إبطي، وتخرج منّي آهه رغمًا عنّي، أحمل كيس البيض وفي يدي الأخرى الجبن القريش ورطل القشطة وأبي يحمل البطة ورطلَيْ السمن.

بمجرد وصولنا يتمدَّد أبي على سريره من رجرجة القطار، وأمّي تجهّز له الفطير المشلتت، يجلس علي الطبلية ورائحة الفطير تملأ البيت، تحفِّز ريقَه النشطَ على الجريان، ويستعجل أمي، فتزعق بصوتها الحاد:

- هو أنا أقوى من النار يا راجل!

دائما ما كان أبي ينبِّه أمي وهي تُلغغ البطة: كفاية هتفطس، ودائمًا ما كانت أمّي تزعق:

- بطل إمارة.. هو أنا عبيطة.

جلسة أبي المفضلة خلف طشت العجين، تسنده أمي علي الحائط وهو يجلس متواريًا، أمامه البيض المسلوق ورغيف مخبوز، كنّا أنا وأخوتي نشم رائحة البيض المسلوق ونسترق النظرات إلى قضمات أبي الكبيرة، ولكنّا نمر سريعًا دون أن نتلكّأ أمامه.

Scanned by CamScanner

ذات يوم، اشترينا كل شيء؛ السمن والبيض والجبن القريش والبطّة البلدي، فباغتتني دراجة، وحدث ما لم يُحمد عقباه، وقع كيس البيض.

زَبَد أبي وشتم، ثم تمالك نفسه وسحبني جوار حائط، فك كيس البيض وأخذ يشربه ويقربه من فمي بالعافية وأنا شممت رائحة البيض وتجمّع ريقي مُرًّا بسرعة، وأخذت أتقيّأ، ظلّ أبي يشرب من كيس البيض وهو يبرطم:

- هبلة!!

عادة ما يرسل لي العميل رسالة لعرض العمل، طبيعة المهمة، ترجمة، كتابة، تدقيق لغوي، أو بحث، فهكذا أكتشف تعدُّد مهاراتي بعد دخولي لعالم الفري لانسر، تلك الطرق الملتوية التي سلكتها وأنا أشعر بالمرارة من تشعُّبات الطريق، والربكة من تعلُّم أشياء لا علاقة لبعضها ببعض، عدّدت مواهبي، وجعلتُ لي ثمنًا في عالم الفري لانسر!

يحدد العميل حجم المهمة، والميزانية المقترحة، و المدّة، وأحيانًا يرمي الكرة في ملعبي، فيسألني عن المدّة والميزانية التي تناسبني، ولم أكن أجيد التقدير في البداية، فجاءت بعض تقديراتي بمثابة اعتراف بقلة خبرتي في عالم الفري لانسر، وبالرغم من شعوري بالخجل، وبالرغم من عدة تدبيسات، اضطرّتني للعمل أيامًا بلياليها، مقابل مبالغ مؤسفة، كان الدافع عندي أقوى، كنت أشيِّد لنفسي عالمًا جديدًا، حيث تتقلص المعاملة، لعدد من الرسائل، ويتحوَّل الرِّضا عنك لأيقونة smile، والسخط عليك لحروف Capital وفي أسوأ الأمر لفيدباك سيئ، وهذا كل ما في الأمر!

الرسالة الثانية من العميل هي العقد، ابتسم عادة لتلك الجملة في نهاية العقد:

- أرجو مراجعة العقد والتفضُّل بالموافقة، يبدو أننا - نحن المصريين- لم نعتد

Scanned by CamScanner

على هذا اللون الراقي في التعامل، خاصة مع تلك الفئة، إللى هما يعني أصحاب الشغل، كان ذلك بالنسبة لي حلًّا مثاليًّا أيضًا لمشكلتي مع أصحاب العمل، فكثيرًا ما كان يجادلني زوجي:

- يا بنتي احنا خدّامين، ازيَّك سعاتّك، سلامتك سعاتّك، تحت أمر سعاتّك!

- كلانا مستفيد، الندُّ بالندِّ.

يبدو أنني أفزعت أرباب العمل بأفكاري المتطرفة عن النديّة، بعضهم كان ينظر إليَّ بانزعاج شديد، قبل أن يقرّر نقلي أو فصلي، وبعضهم كان يعاقبني بعض الوقت، محتاجلي، بس مش الندّ بالندّ، لذلك لم أعمِّر في أي عمل إلا التدريس بالحصة.

ذات مرّة قال لي صاحب عمل:

- عشان كده بتشتغلي زي الحمارة؟ عشان ما أقدرش أقولِّك تِلْت التَّلاتة كام!

أضغط الأيقونة، موافق، تظهر لي صفحة جديدة.

العميل: سان بلو

الفري لانسر: س

رقم العقد

المدة

الميزانية

طبيعة المهمة

مُفعَّل

ينتهي هذا العقد في

أخيرًا، ولأوّل مرّة، أحسُّ بالتحقُّق، أحببت العمل مع الأجانب، أحببته منذ أن

Scanned by CamScanner

قرَّرت أن أعمل، وطبعًا لن تصدِّقوني إذا قلت لكم إنني بدأت مشواري المهني في سن الحادية عشرة، وقتها قالت لي (قهر):

- منك لله.. دائمًا ما تَسنّين سُنّة في البيت واحنا نروح في الرجلين.

ولم أكن أقصد من عملي توريط أخواتي البنات في العمل، كنت أقصد أن أرد على أبي حين يغيظني بتصرفاته الصغيرة، فقد نما عندي اعتقاد ما في تلك السن الصغيرة، وهو أنني لن أتحرّر ما دمت أمدُّ يدي للمصروف، كيف أرد على أبي كما يفعل كل أخواتي وهو ما زال ينفق عليّ، كنت أريد أن أرد على أبي، ظلّ ذلك حلمي المؤجل، إلى أن مات أبي!

والحمد لله أنني لم أردّ عليه؛ فقد مات وهو يشهد لي بالكمال.

- عمرها ما رَدِّتْ عليَّا.

أوغر أبي قلوب أخوتي من ناحيتي، بإسرافه في المديح، ولم أكن بريئة تمامًا، عملت طوال عمري على كسب رضا الجميع، تخفّيت بنزواتي المشروعة، حتى استحالت بداخلي إلى جرائم تلهب الضمير، تقمَّصتُ شخصيَّاتٍ لم تكن تروقني؛ فقط لأناسب الذوق العام، حتى نظرت إلى وجهي في المرآة تحت ضوء حقيقي فلم أتعْرف عليه، ما الذي كنت أخفيه؟. مَنْ تلك المرأة التي تزوّجت، وأنجبت، ووضعت غطاءً فوق رأسها، وأهدرت أوقاتها في إرضاء الآخرين؟. لم أجد إجابة، غير أن تلك المرأة لم تكن أنا، ثمة أخرى في الداخل تدفن رأسها في الرمال.

النَّمِرَة التي كنتها منذ عشرين عامًا

واجهتني ليلة أمس

أنت تعرفها

رأيتها في بعض الصور القديمة

Scanned by CamScanner

لم تزل في درج المكتب

كان عليَّ أن أنقّبَ في الأعماق، أزيل الطبقات؛ واحدةً إثر الأخرى بلا خجل، وبلا مواربة، وبلا خوف منكم جميعًا، ومن تلك العينين، كفتي الميزان!

أمسُدُ الأخرى، أسحبها من يدها بحسم، وأخرج بها أمامكم، وأحدّق في أعينكم بجرأة بصرف النظر عن مدى ثقلي فوق الكفة الأخرى!

انكسر قلبي كثيرًا، لكنه عاد والْتَأَمَ وجرت فيه الدماء، كان كل مرة ينكسر، يعود، مرفرفًا مترعًا بالألوان.

لطالما ظلّ الآخر همّي الأوحد والأكيد والحتميّ والآنيّ؛ ومن الآخر، لا حياة بدون الآخَر، مهمّا كلفني الأمر من هزائم ومرارات.

وكما ترون بأعينكم؛ فهدفي نبيل، ولكن الطريق إليه كان وعرًا، يشبه متاهة آدم وحواء بعد سقوطهما المريع من الجنة، زوجي يعشق فيلم الخروج من الجنّة، يراني «عنان»؛ المرأة الأسطورة، وأنا أوافقه في تشابهنا؛ ولكن في الغتاتة!

مَنْ منّا يستطيع أن يعيش مشطورًا، بالله عليكم قولوا لي، كنت أشعر بلسعة الهواء على حوافّ شقّي الوحيد، كنت كالطفل الضائع يبحث عن أهله في الزحام، ولكنهم لصوص الطريق أبطئوني، وكدت أن أعود، لولا ظهور (واو) القدري!

ربما كان قدرنا - أنا وأنتم- البحثَ عن الآخر، ولكني أحمل لكم حقيقة قد لا تروق لبعضكم، خاصة بعد أن عرفت اللذة؛ لذة الاكتمال، أنتم تعيشون في فوضى حقيقية، داخل كابوس مطبق، يبدو أنكم تستحقّونها، فبالنسبة لي لم يكن هناك بديل إلا الآخر، بينما توافقتم مع البدائل، مجرد بدائل لتستمر الحياة، لذا لم تمرُّوا مثلي بتلك اللحظات النادرة من الامتلاء، أنتم في خواء!

Scanned by CamScanner

رَكْلَةٌ مِنْ فَرَسْ
تركت في جبيني شجًّا
وعلَّمَتِ القلبَ أن يحترس[٤]

---

(٤) أمل دنقل

Scanned by CamScanner

(٧)

اسمي (هُل)

أمي تحكي لنا عن أختين مفقودتين، أخدهم الوَبَا، أعرف أن الموت أخذهما بسبب الإهمال. الإهمال في بيتنا طال كل شيء يا صديقي، تخيّل أن رأسي شُجَّتْ وأنا صغيرة، وقعت فوق حجر، كانت أمّي تجلبه هي والجيران من عند البناية الجديدة، عندما ينتهي العمّال ويلتفُّ الغفير ببطانيته، تضعهم في مدخل البيت، لم نكن نبني بيوتنا إلا بالطوب الأحمر، أما أن ينبني بيت بالحجارة المصقولة فشيء لم نكن نعهده، أملة!

كانت تلك الأحجار بمثابة آثار بالنسبة للجيران، الذين عادوا لتوِّهم من الريف واشتروا أرض «عزبة أبو العلا» و«عزبة صلاح عبد الكريم»، أزلنا الحشائش الخضراء، وأخرجنا حشا الأرض التي لم تزل حية، كنت أحس بأنفاسها الأخيرة ونحن نكوّمها بعيدًا، ونعبّئ بطنها بالأسمنت والمسلح، ونسوِّيها بالطين.

كنَّا في بلدتنا نبني بيوتنا من الطين، وفجأة وجدنا أمامنا طوبًا من

Scanned by CamScanner

حبيبات الحجر مجوّفًا، فأخذنا نغافل الخفير الملفوف في بطانيته تحت بير سلم البناية التي لم تكن قد اكتملت بعد، ولكني ارتبكت كعادتي، تكعبلت في عتبة مدخلنا، وانزلقت ساقي ووقعت فوق إحداها، دخلت جبهتي بمنتهى القسوة في سِنّه المدبّب، تركت أمي الجرح إلى أن تعفّن، أذكر طول الفتيل الذي كان يدخله الحلاق لينظف الجرح، كنت أحس بلسعة المطهر داخل دماغي المفلوقة، مَيّة نار، وجهي في مرآة الحلاق التي بحجم الحائط، يبدو قبيحًا، غاية في القبح، فمي مفتوح على مصراعيه، وأنا أصرخ من هول اللسعات المتتالية، كثيرًا ما كان فمي الواسع موضعَ تندُّر من أمي، لذا كانت تناديني وقت الشر: يا امُّ ضَبّ!

أعرف أن فمي الواسع يروق لك، رغم أنه يذكّرني بفم القردة، خاصة وأنا أبلع فمك الصغير وجزءًا لا يستهان به من شاربك وأبقيهم في الداخل، داخل أحشائي الملتهبة كأتون، ريثما ترتوي الطفلة التي كنتها ذات يوم!

غير أن الواقع كان مختلفًا تماما، تمامًا يا صديقي؛ فلا زلت أخجل من فمي، وربما نهرتَني عدة مرات وأنا أواربه بكفي كلما تضاحكت:

- ليه يا حبيبتي، ضحكتك جميلة.

(هُل) هي كُبرانا، بصرف النظر عن الأختين المفقودتين، وجهها دافئ كبيتنا القديم، قبل أن يلمّنا أبي مع الكراكيب فوق عربة كارو، بالطبع كنا مبتهجات أنا وإخوتي كأي أطفال، غير أن وجهي كان يبصُّ رغمًا عني إلى الوراء، إلى أن أصبح بيتنا القديم بمثابة نقطة عالقة في آخر المنحنى!

يذكّرني ذلك بأجمل دليل على كرويّة الأرض، رؤية أعالي السفن قبل أسافلها على مرمى البصر. دائمًا ما ألتفت إلى سحر الكلمة، أمرِّر الكلمات

Scanned by CamScanner

على طرف لساني منذ أن وعيت الكلام، وأحلب رحيقها المعسول، كنت أحفظ تلك الجملة عن ظهر قلب وأنا أتخيّل المدار الذي تصعده السفينة، والذي يبدو لنا في الواقع بمثابة أرض ممهّدة ومستوية، ها أنا أكتشف أننا جميعًا نعيش فوق مدار، بالطبع شعرت بالرعب، إلا أن ما أرعبني أكثر هو صعوبة التخيُّل، لم يكن بوسعي تركيب الصورة، تمامًا كبقية الصور التي حيّرتنا جميعًا نحن البشر، فهل تستطيع مثلًا أن تتخيّل الجنّة، تردُّ عليّ بغبائك المعهود:

- طبعًا.

- يا بني عيب يا بني، ده بيقولّك: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!

لم يعد بوسعي أن أفسّر تلك العبارة لتلامذتي؛ فتلك الأدلّة على كروية الأرض انمحت من كتب الجغرافيا تمامًا، وعندما حاولت أن أشرحها لابنتي ضحكت باستخفاف:

- دليل إيه يا ماما، هو فيه حد مش عارف ان الأرض كروية!

فلماذا إذن كنا نحن بحاجة إلى دلائل، لا دليل واحد، لنتثبت من كروية الأرض؟! هل كنّا سذّج؟

لا زال يؤرّقني أثر أصابعي الصغيرة الذي تركته على الجدار وأنا أساعد أمي في تصقيل واجهته، بالطين المخلوط بالقش.

كنت أناولها، وعندما أجدها مستغرقة أضعه على الحائط وأسوّيه بأصابعي، إلا أنها كلما انتهيت، كانت تمر عليه براحة يدها فتنمحي أصابعي.

Scanned by CamScanner

كنت أستيقظ في اليوم التالي وأتفحّص الجدار، وأخمِن موضع أصابعي تحت راحة أمي، ألمسها بيدي كأمٍّ رؤوم تتحسَّس أبنائها!

تزوجتْ (هُل) في سن الثانية عشرة. أبدو سخيفة وأنا أتحدث عن غيري، ربما يكون من الأجدر بي التزام الصمت وترك منصة الحكي لصاحبة الحدث؛ فهي هنا أحق بالكلام!

اسمي (هُلْ)، هكذا يسمِّيني أبي.

خرطني خرّاط البنات في سنٍّ مبكرة، نبت لي برعمان أسفل إبطيّ وأنا في التاسعة، تقاربا واستدارا، وبان لونهما الوردي أسفل هدومي، فاضطررت لإحجامهما في مشدٍّ قماشيٍ من صنع أمي، لماذا يصنعنا الله هكذا أمام أعين الغرباء؟!

أمي خيّاطة، وبرغم من أنها ليست دقيقة في عملها؛ تكسب من عملها أكثر من أبي. ولذلك عند احتدام الموقف بينهما، تحمل أمّي كل عِزال الشقّة وتخزّنه عند أقاربها الذين نزحوا قبلنا إلى تلك المنطقة، انتقامًا من أبي الذي يكسب قوته بالكاد من نفس المهنة.

جدّي لأمّي هو الذي أرسلها لأبي ليعلِّمها الخياطة، وعندما حاول أبي مغازلتها ضربته بالشبشب، وفي المساء كان في بيتهم لخطبتها، هكذا هم الرجال!

ورغم تحذيرات الأهل والجيران والكوابيس التي راودته، وكانت مفعمة بالدلالات، تزوّجها أبي.

أمّي لسانها كالمضرب، لا يرحم أحدًا؛ كبيرا كان أو صغيرًا. والحق أقول، كلُّنا بلا استثناء ورثنا حِدَّة اللسان من أمّي، ولكن بدرجات متفاوتة!

Scanned by CamScanner

وأنا في دكان أبي، قبل أن يترك مهنته، ويستريح في البيت، ظلّ أبي مستريحًا في البيت أكثر من خمسة وعشرين عامًا، تخيّلوا معي: رجلٌ قابعٌ في البيت، فقط يأكل وينام، لخمسة وعشرين عامًا!

المهمّ أنني لمحت عينين تبصّان عليّ بنظرة لم تكن محايدة، التفتّ فوجدت عم حمدي يتحسّس صدري، بعدها نهرني أبي وطلب مني أن أناديه باسمه:

- عم إيه يا بنت الهبلة، ده عايز يتجوزك!

كنت في سن صغيرة، حشرت أمي في مشدّي عدّة قصاقيص من تلك التي تمتلئ بها شقتنا، وصبغت وجهي بعد أن حفّفتني بقطعة من الحلوى، كنت أبدو كدمية أمام الرجل الذي كانت مهمّته تَسْنِيني.

أطبق أبي في يده ورقة بخمسة، وابتسما لبعضهما في تواطؤ، ثم حرّر لي ورقة بسنّي الجديد.

أنا الآن بموجب هذه الورقة أبلغ السادسة عشرة، تزوّجت عم حمدي، ولم نكمل عامنا الأول حتى أنجبنا طفلًا، جميلًا كأمّه، ومريضًا كأبيه.

كان حمدي مصابًا بمرض خبيث، وكنت أرى تساقط شعره فوق الملاءات الجديدة، عروسة بقى! فأنكمش في نفسي، ورغم كم الركلات والصفعات التي تلقّيتها من أبي وأخي، صممت على الطلاق. مسحت أمّي بي البلاط، كانت تكبش شعري بكفّيها وتريه لي عندما ينخلع في يدها، وتحرقه على عين البوتاجاز حتى تظل رأسي تأكلني طوال الليل، ولكني كنت أقشعر عندما أتخيّل أنني سأنام بجانبه يومًا آخر، الضرب أهون!

- يا قليلة الأصل تسيبي الراجل وهو مريض!

تزوّجته مريضًا، أمّي لا تقول الصدق، لم أسمعها مرّة تنطق صدقًا، أخفى

Scanned by CamScanner

عنّا، خدعنا، منذ فترة وأنا أتشاجر معه لأي سبب كان، لأنام مرة أخرى على سريري مع إخوتي، حتى كانت المعجزة التي لم أكن أحلم بها، الطلاق، الابتعاد عن رائحة الشيب والمرض التي كنت أنكمش حيالها، خاصة حين يستلقي فوقي ويضع فمه المريض على فمي ويريل داخلي، كنت أقفز كالمذعورة رغمًا عني لأبصق.

من الصعب أن تحكي حكاية؛ فالأحداث تتوارى خلف ستائر الزمن الكثيفة، ولا يتبقّى لك في نهاية الأمر إلا أثرًا واهيًا، بوسعك أن تتلمّسه من ندبة صغيرة بقيت في الروح، برغم مرور الزمن. فهل ستثير نغزًا ما عند الضغط عليها بإصبعك؟

أبدًا لن تُحدث شيئًا بالمرة، فالمصائب تكرّر نفسها، حتى تفقد هيبتها!

وبالرغم من كل المعاناة وإدراكي لسوء اختيار أهلي في زيجتي الأولى فلم يكن بوسعي أنا الجاهلة الصغيرة التي لم تتجاوز السادسة عشرة بعدُ أن أمنع الكارثة الثانية.

استلمتني أمي فور طلاقي، طبعًا أنا الآن وفقًا لأعرافكم بمثابة مادّة مثاليّة للمعايرة، ورغم أنني أنا التي طلبت الطلاق، وأصررت عليه، ونلتُه بعد معاناة، ظلّت أمّي تعيّرني بأنّي لن أعمّر في بيت، ومفيش راجل مالي عيني، وكأن زوجي هو الذي لفظني، وبالطبع كنت وابني ضيفين ثقيلين، ولولا أن أباه يصرف عليه لرموه في الشارع، وبالرغم من ذلك، أمّي لا تكف عن الدعاء عليه.

- يا عبيطة هيوقّف حالك، ربنا ياخده

وقد كان!

Scanned by CamScanner

فبالرغم من قبح أمي ولسانها الذي يشبه المبرد؛ استجابت لها السماء ولم تستجب لي.

وللحق، أنا حتى لم يتسنَّ لي أن أعرف وجيعته، فأبي لا يؤمن بموضوع الدكاترة، رغم أنه لا يكفّ عن الذهاب للطبيب، بمناسبة ومن غير مناسبة، ويسرف في استخدام الأدوية، كنوع من الوقاية!

ما العمل الآن، ليس معي أية نقود، ولا حتى شهادة لأعمل، أرسلت إلى طليقي فلم يرد، توسلت إلى أبي، انحنيت على قدميه الخشنتين وقبلتهما:

- تمن الكشف بس يابا الواد بيموت.

وأبي حسم الأمر بمَثَله الذي يكرّره في تلك المواقف:

- يا زارع في غير أرضك يا باني في غير ملكك!

وذات صباح تضخّم جسد ابني وازرقّ واحمرّ، وغادرنا إلى غير رجعة، دون أن أعرف حتى مِمَّ كان يعاني، دون أن أتمكن من تخفيف ألمه سوى بيديَّ الخاويتين التي لا تملك سوى الطبطبة، وبقيت حرّة، بلا زوج وبلا أولاد!

ازددت جمالًا على الرغم من تلك الدوشة، فلم يكن بيتنا يخلو من الخُطّاب، حتى أثرت حقد بنات الجيران، فأنا مطلّقة وهنَّ ما زلن بخاتمهن، فَلِمَ كلُّ هذا التهافت عليّ؟. هُمَّا العرسان اتهبلوا ولا إيه؟. دي خَرْج بيت. كنت أنا المقصودة بخرج البيت، وكُنَّ يقُمْنَ بجرّ شكلي بأية طريقة، يدلقن علي رأسي الماء الوسخ من البلكونات حينما يلمحن قُصّتي يطيّرها الهواء، وتشتعل خناقة ليتمكّنَّ من تقليعها، كانت لي قُصّة تشبه قُصّة شادية في فيلم الزوجة رقم ١٣!

وذات مساء مشؤوم ساق إليَّ القدر الزوج الثاني، «أبو عبادة»، من حمدي

Scanned by CamScanner

«لأبو عبادة» يا قلبي لا تحزن، كنت أقف في مدخل بيتنا أمام الحنفية أنتظر أن تمتلئ البستلة، حينما حيّاني هذا القدر اللعين:

- مساء الخير.

- أهلًا، قلتُها وأنا أخفي احتقان وجهي من أثر البكاء وعلامات أصابع أخي فوق خدّي،

- هو محمد هنا.

يا نحنوح، قلتها في سرِّي، هو انت هتسبِّلِّي بروح أهلك؟

ناديت بصوت مشحون:

- محمد، كلِّم يا لا.

ورفعت البستلة بذراعي، فوجئت بهذا المتطفِّل يهرول ويساعدني في رفع البستلة ويضعها فوق رأسي،

كان ينظر في وجهي المحمرّ بوقاحة، هكذا دائمًا يفعل الرجال، كلهم وقحون، شممت رائحة عرقه الكريهة، إلا أنني انتبهت لتدفق إفرازاتي في لباسي الداخلي، لفعته بعنف وصعدت السلم!

يلعن أبوك على يلعن أبو صحابك يا محمد!

لزقة، كان أبو عبادة كاللزقة، فقد صعد السلم مع أخي متحجِّجًا برغبته في كوب شاي، وبعدها عرفت أنّه لن يرحل مطلقًا حتى يحظى بي!

أخذ «أبو عبادة» يُمنِّي أخي وأبي وأمِّي، لم يترك أحدًا إلا وعشَّمه بشيء، الملعون! حتى إخوتي الصغار، اللي هيجيبله لعبة، واللي هيساعده في المذاكرة، ودايمًا جاي شايل ومحمِّل، آل يعني فيس قوي!

وأبي ريقه يجري وأخي أهبل أصلًا، وانقلب الجميع محامين لأتزوج «أبو عبادة».

Scanned by CamScanner

فهل وافقت؟ كلّا لم أوافق، بكيتُ وأضربتُ عن الطعام وساقُوني إليه يوم الزفاف وعيناي متورّمتان من أثر البكاء!

والحقيقة التي لم أكن لأجرؤ في وضعي هذا أن أعترف بها لأحد؛ أنني كنت أحبُّ، للمرَّة الأولى أحبُّ، كنت أحبُّ جارَنا العازب، كان تلميذًا في كلية الطب، جاء هنا ليكمل دراسته، وسكن في حجرة على سطح جيراننا.

خفق قلبي للمرة الأولى بعنف، وتركته يقبِّلني عدة مرات في مدخل بيتنا، تذوّقت طعم الشباب، وعندما علم بموضوع أبي زياده وعدني أن يسافر إلى بلدته يومين، يومان بالتمام والكمام، ويجيب أمه ويتقدم لخطبتي!

مر اليومان ولم يأتِ، هرب؟ ربّما، لم يعد أمامي سوى هذا النطع:

أهو جالك يا بت.. أهو جالك يابت

ريَّح بالك يا بت

بكره يأستك الأساتك

بالدهب تملى دراعاتك

ويعوّض كلّ اللي فاتك

واهو جالك يا به ... ريَّح بالك يا به

يقف «أبو عبادة» بأوداجه المنفوخة، ينظر إليَّ نظرات وسخة بجلبابه الأبيض المكوي وبُلْغَتِه البيضاء، هوَّ في حدّ لسّه بيلبس بُلغة! إلهي يكسفك يا بعيد، يتراقص كالنساء على الأغنية بنصفه الفوقي، وأمي ترقص رقصتها السخيفة وتزيد في الغناء وكأنها توجِّه كلامها إلى بنات الشارع اللاتي لم يكففن عن أذيَّتي منذ أن تطلّقتُ:

الإش إش كال الشعريّه

Scanned by CamScanner

ياما ناس منكاده ومهريّه

والإش إش كال البسبوسة

يا ما ناس متغاظة ومفروسه

وأم هويدا جارتنا تعرف أنها المقصودة بالكلام؛ فعين أمّي تتَّجه نحوها، وهي تغنّي وخمس بنات في رقبتها، ولا أمل أن يطرق بابهن طارق، تعوّدت بناتها على لحس أي طعام يمر بهن، واشتهرن بموضوع اللحس ده بين الجيران، نفضت أم هويدا جلبابها وقرصتني في ركبتي رقصة موجعة وكذلك فعلت بناتها، وكان بجسدي ما يكفي من رضوض بسبب الضرب الكافر الذي تلقّيته من أخي وأبي وأمي منذ اللحظة المشؤومة التي رآني فيها «أبو عبادة» وحتى يوم زفافي، وجدتها ذريعة للبكاء فبكيت، أخذت أجهش بقوة وغيظ، أَسَلْتُ الكحل والآي شادو والمسكرة وأصبح وجهي كما العفريته!

جاء الحبيب، كما في الأفلام، تأخّر أسبوعًا، لكنه جاء، أخذ يبكي كالأطفال عندما أخبرته أمي أني تزوجت ليلة أمس، سبق السيف العذل، ما لكش نصيب يا حبيبي، كلّا ليس هو، أنا اللي حظّي فقري، صحيح، المنحوس منحوس ولو حطّوا على راسه فانوس!

كان «أبو عبادة» يعمل مقاولًا، يبيع ويشتري الأسمنت والرمل والزلط، ولم يكن حتى يعرف القراءة، تزوّج قبلي مرتين، وهبة، ونفيسة، ماتت الأولى ولم تنجب، أما الثانية فلم تزل على ذمته، تشبه عائشة الكيلاني، أسكنها هي في حجرة أسفل السلم ووضّب لي غرفة بمنافعها في الدور الثاني.

ومنذ أول يوم وطأت فيه قدمي باب هذا البيت اللعين حرَّمتُ عليه معاشرتها.

Scanned by CamScanner

- يا نا يا هي، لكن تنام معانا احنا الاتنين، ده لا ممكن أبدًا!!

طلبت نفيسة الطلاق، ولم يمض وقت طويل حتى تزوجت رجلًا مقتدرًا كما يقولون، وبدت عليها النعمة، والحق أنها كانت مقشِّفَة في كنف زوجي، وهكذا رِسِي بيًّا الحال، فالزواج كالبطيخة المغلقة، لا تعرف ماهيتها إلا عند لحظة الشقّ!!

تركتْ لي ضُرَّتي ولدًا وبنتًا، خليل وصابرين، تكفّلتُ بهما إلى أن قضى الله أمرًا كان مفعولًا.

فذات يوم، وبينما كان الولد ينام في الصالة، في شقتي، بعد أن تناول غداءه كالمفجوع لم يستطع أن يبلع نفسَه، فمات مختنقًا. وبالطبع أشاعت ضُرَّتي إنّي أنا اللي قتلته وأخذتْ البنت، وهكذا تخلصت منهما بضربة قدر!

أدركت منذ اليوم الأول أن زوجي مهووس بالنساء، لم يترك صدرًا أو مؤخِّرةً إلّا واحتكَّ بها، حتى أخواتي البنات لم يسلمْنَ منه رغم صغر سنِّهنَّ، كان يغافلهنَّ ويضع يده على صدورهنَّ الصغيرة وكنَّا جميعًا أنا وأخواتي نتحاشى الكلام في هذا الموضوع، ولكنني لاحظتُ المسافة التي كنَّ يتَّخِذْنَها حين يتَحدَّثْنَ معه، خوفًا من أن تطالهن يده اللعينة!

وكما تدين تدان، فكما ينتهك زوجي حرمات الآخرين، ستدور عليه الدائرة، تلك اللعنة التي سأدفع وحدي ثمنها!

تعلَّمتُ الإخلاصَ والمثابرةَ

من الدِّيدانِ الغامِضَةِ الَّتي كلَّما سقطتُ من على أغصانِها،

عاودتُ الزَّحْفَ إليها.

Scanned by CamScanner

وتعلَّمتُ كيف يُمْكِنُ لِجِلْدِ البَشْرَةِ أنْ يَصِيرَ مَخْلُوقًا حَيًّا، عندما كنتُ أشْعُرُ بِدَغْدَغَةِ تِلْكَ الدِّيدَانِ وهِيَ تَزْحَفُ عَلَى يَدِي.

وَعَرَفْتُ النَّحْوَ الَّذِي سَيَكُونُ عَليهِ الإحساسُ الجِنْسِيُّ يَوْمًا مامِنَ التَّسَلُّقِ إلَى قِمَمِ الأَشْجَارِ.(٥)

---

(٥) كلارسا بنكولا، نساء يركضن مع الذئاب

Scanned by CamScanner

(٨)

(أب وُرْك)

عزيزتي س

السلام عليكم

فضَّلتُ أن أبحث عن اسمِكِ عن طريق النت لأرسل لك رسالة بدون قيود، فوجدت هذه الصفحة. أمّا الصَّفحة الأخرى (أب ورك) أرسلت لي رسالة بأنه لا يجوز المراسلة باللغة العربية، وهذا لا ينسجم مع طبيعة عملي؛ لذا أرسل لك الجواب عن طريق هذه الصفحة، وأرجو المعذرة على هذا التغيير. أحتاج الى اتِّصال مباشر معك عن طريق الإيميل، السكايب أو أي وسيلة أخرى للاتِّصال تفضليها، وذلك لنتفاهم على جميع تفاصيل العمل، فأرجو مراسلتي على هذا الإيميل.

أنا عربيٌّ أقيم في سويسرا، وأعمل بتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، وعندي أفكار عن تأليف دورة تعليمية للمستويين المتوسط وفوق المتوسط، وبعد أن اطّلعتُ على بروفَيْلِكِ وجدتُ أنك الشخص الذي أبحث

Scanned by CamScanner

عنه؛ لذلك أرجو أن أعرف الميزانية المقترحة لهذا العمل علمًا بأن العمل بيننا قد يطول شهورًا.

جزيل الشكر

سمير جويس

استيقظتُ من النوم في هذا الصباح الجميل فوجدت يمامة راقدة على شبّاك صالتنا، وبعد أن تفقَّدتُ بريدي كعادتي كل صباح، وجدت الرسالة، أحسست بالنشوة، لم أكن أنتبه من قبل أنني أمتلك مهارات أخرى غير الترجمة، والحقيقة أنني دخلت هذا العالم الافتراضي من باب الترجمة، ولكني بدلت عنوان بروفيلي فيما بعد، وجعلته كالتالي: مترجمة/ باحثة/ كاتبة.

ولأول مرة أشعر بثقة في نفسي، وأن لديّ ما أقدمه، دون أن أعمل في مكان محدّد، ودون أن أختلط بالبشر، كان جويس هذا يضع في حسابي ٨٠ دولارًا أسبوعيًّا، مقابل كلِّ ألف كلمة أراجعها له، ولم يكن الأمر يستغرق منّي عدّة ساعات، وكنت أكتب لموقع في دبي مقالات في تلك الأثناء، بمرتب شهري، وأرسل لجويس الملف كل أسبوع، حتى لا يستهين بالمجهود الذي أبذله، وبمرور الوقت، فترت همّتي، فقد كانت أفكاره ساذجة ومعرفته سطحية، ودائمًا ما يبدي اعتراضًا كنوع من المشاركة. لذلك حين عرض عليَّ أن يكتب اسمي بجوار اسمه على غلاف هذا الكتاب التافه، رفضتُ وطلبت بدلًا من ذلك أن يعطيني بونس وفيدباك جيّد وقد كان!

تلخّصت مهمّتي في ذلك المشروع على تصنيف الكلمات، اسم وفعل

Scanned by CamScanner

وحرف وحال وظرف، ثمَّ تشكيلها بالحركات، ضمة، فتحة، سكون، كسرة، وتنوين، بعدها كنتُ أرتجل جُمَلًا لتوضيح معنى الكلمة العربية بشكل مبسّط وطبيعي!

أصبح بروفيلي على أب ورك معقولًا، خاصّة بعد كلمات جويس التي وضعها بجوار الخمس نجوم، كانت الكلمات رائعة ومشبعة لتضخُّمي الذي ظللت ولم أزل أعاني من سطوته حتى الآن!

انتهت مهمّة جبريل وميكال عند هذا الحدّ، فقد تشاجرتُ مع جويس في المرحلة الثالثة من العقد بعد أن استفدت منه خير استفادة.

أعطاني اتنين فيدباك وحوالي ٤٠٠ دولار ورفض أن يعطيني فيدباك ثالث بعد أن قمت بإغلاق العقد دون أن أُعْلِمَه، اعتبرها إهانة، برضه عربي! وأنا التزمت الصمت ولم أرد عليه، خاصّة بعد أن حصلت على عقد آخر.

أسرعت كذلك باستغلال تلك الميزة الهائلة، وأغلقت الباب المتاح أمام جويس.

- لن يتمكن جويس من الاتصال بك.

- برافو!

باضت اليمامة بيضتين صغيرتين، وكنت كلّما رثيتُ لحالي، فأنا أستيقظ مبكّرًا وأظلّ أعافر مع النصّ حتى تتورّم رأسي، وكان عليَّ في الأثناء أن أمارس حياتي العادية بانتظام، أرتّب البيت وأعد الوجبات، وأغسل هدومنا على غسّالة عاديّة؛ يعني أعصر وأشطف وأنشر وأطبّق، ثم أذاكر لنور دروسها، وأستنى هارون الرشيد، برفان ومكياج وقميص لونه أبصر إيه، وحاجات.

ولكنها اليمامة العظيمة، دائمًا ما كانت تمدّني بالطاقة؛ فقد كانت تترك

Scanned by CamScanner

بيضتيها بعد أن ترقد عليهما بالساعات، ثم تُجِدُّ في البحث عن طعام بقية اليوم، وتعود للرقود عليهما مرة أخرى.

جاءتني أول رسالة ماجستير من باحث مصري، عرض جنيهين في تصحيح الصفحة، لغويًّا وإملائيًّا وترقيميًّا، كنت على وشك الرفض، ولكنه استوقفني بكلمتين، أنا مجرد دارس فقير، أرجو منك المساعدة أختي العزيزة.

كانت الرسالة عبارة عن نص مهلهل يفتقر إلى الإحكام، ولذلك اضطررت للاتِّصال به تليفونيًّا فقال لي: اعملي كل اللي حضرتك شايفاه، لا يهم أن تبدّلي النص بالكامل.

وقد فعلت وأرسل لي رسالة شكر و٤٠٠ جنيه مصري على خط موبي كاش!

- تمام يا دكتورة.

كان يدعوني بهذا اللقب، وحينما نبّهته بأنني لا دكتورة ولا دياولو قال لي:

- العفو يا دكتورة.

منحني الموقع الذي كنت أعمل به «بادجًا» رائعًا، لونه أخضر كلون الخس، ومكتوب عليه بالانجليزية: Top rated وأعطاني ١٠٠٪ على نجاح مشاريعي، وبالتالي زادت فرصي بدرجة هائلة، وأصبحت دعوات العمل تنهال عليَّ دون أن أتقدّم لأي وظيفة، كنت أختار منها أعلى سعر وكنت أزداد تضخّمًا بشكل غير مسبوق!

كتبت مقالات عن المجوهرات والساعات المرصّعة بالذهب والفضة لموقع جواهر، ومقالات عن التجميل بالليزر وإزالة الوشم، وشدّ الترهلات، والقضاء على حب الشباب، والنمش، وإزالة الدوالي، والخطوط الدقيقة وتدبيس المعدة وتصغير الثديين، وتكبيرهما، وتقليل حجم المهبل، لموقع

Scanned by CamScanner

دبي كوسميتك سيرجيري، كتبت دراسة عن أمل دنقل لأكاديمي متخفٍّ تحت اسم مستعار في الأردن مستر ويلسن، وبحث فلسفي عن نظرية رولز من منظور إسلامي لرجل يسمي نفسه سان بلو.

ترجمت مواقع عن الجمال والفن والمال والقانون وفرد الشعر بالكرياتين، وكتب لمدارس في أمريكا كدليل لأولياء الأمور الذين يتحدّثون العربية، ورسائل بين ناس وبعضها/ وشتائم/ وحوادث قتل، ومحاضر، وقضايا بين موظفين ومرؤوسيهم، ومقاولين وأصحاب العمل، وموشَّحات أندلسية، وقصائد شعر، وشاتات على الفيس بوك وتويتر، وكتب عن الموارد البشرية، ومواد تعليمية، ودليل استخدام التليفون وغلّايات، وجداول حسابات وإدارة، وشهادات ميلاد وزواج وطلاق، وشهادات دراسية، وقصص أطفال، ومقالات، وعروض لمنتجات، وإعلانات، وبعض الألعاب للأطفال، إلّا أنّ اسمي لم يُذيِّلْ أي عمل، فقط حفنة من الدولارات وفيدباك.

قرب الفجر سمعت صوت رسالة، فتحت بريدي فوجدت عرضًا من عميل:

مرحبًا س

يهمّني التقدّم لمشروعي، إذا كنت متاحة، لديَّ خطاب عائليٌّ غاية في السرية؛ لذا لن يكون بوسعك إضافته إلى حافظتك بعد انتهاء المشروع، أرغب في ترجمته خلال ساعة، ما هي ميزانيتك المقترحة، لنصّ صفحة واحدة، مع شرط ضرورة توقيعك.

أتمنّى لك وقتًا رائعًا

أليكس موريللو

Alex Murillo

Scanned by CamScanner

حمّلت الملف، كان عبارة عن صورة لخطاب بالقلم الجاف، وبخط ركيك يبدو عليه عدم معاشرته للقلم.

نص الرسالة:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سعاد أم عيد الكبير

كأي أمٍّ تحبّ لأولادها الأفضلَ رفضت أن يتزوج ابني بامرأة تكبره بسنوات ولها أولاد، وبالرغم من هذا حلّت ضيفةً ببيتنا في المغرب، فاكتشفت فيها الإنسانة بمعنى الكلمة واحترامهما وتقديرهما وحبهما لبعض وأشياء أخرى بشهادة جميع من كان يتواصل معهما لغويًا (محسن وزوجته نسرين، أسامة وأسرته، عبد الغني وأسرته، وجميع الأصدقاء والعائلة، وتكررت الزيارة فأصبحت مكانتها كبيرة بين الأسرة، وأصبح الكلُّ يحبُّها ممَّا جعل فارق السن يتلاشى تمامًا.

ومن خلال أسئلتي

تأكدت أن ابني يقدّرها ويحترمها ويحبها، ويحب أولادها؛ لهذا تزوجها زواجًا حقيقيًّا، وليس زواج مصلحة، والدليل عمه تزوج بامرأة تكبره كثيراً وكان زواجه ناجحًا دام ١٨ سنة، وما زال مستقرًّا مع أولاده ولا ننسى قدوتنا سيدنا محمد (ص) رسول الله، كان الفرق بينه وبين زوجته خديجة ١٥ سنة، وكان زواجًا ناجحًا بما في الكلمة من معنى»

سعاد

ولأول مرة يطلب مني العميل كتابة اسمي كاملًا على النص، ولمَّا لم أَعْتَدْ على طلبٍ كهذا من قبل فقد انتابتني الشكوك، أعجبني النص، ذكّرني

Scanned by CamScanner

بحماتي، فبالرغم من وقوفها لنا أنا و (واو)، ورغبتها العارمة في أن يتزوج من ابنة خالته، دائمًا ما تعلن على الملأ أنها تتمنى لولديها زوجة مثلي، ويظل هذا الخطاب هو العمل الوحيد الذي ذيّلتُه باسمي وانتابتني بهجة عارمة.

فقست البيضتان، خرج منهما فرخان مبلولان لونهما أسود، انزعجت عندما رفع إحداهما رأسه فأبصرته من خلف السلك الذي نضعه فوق الشبّاك لمنع دخول الزواحف والحشرات.

خفت من فرخ اليمام، كما أخاف من كل مولود جديد، يقشعرّ جسدي من الجلد الأحمر الذي لم يزل في طراوته المائية اللزجة، العيون التي تختبئ كبيضة غير ناضجة تحت تجاعيد من الجلد الرهيف، تلك العجينة أخاف أن ألمسها فتغوص فيها أصابعي، أو تحدث بها ضررًا ما.

لهذا عندما ناولوني نور عقب ولادتها، تسببت انكماشتي المفاجئة في اهتياج الجرح، فأطلقت صرخة، هكذا استقبلت نور بصرخة، أشعر بجسدي مشطور نصفين، بالعرض أسفل السرة، رأسي وجذعي في ناحية، والساقان حتى أسفل السُّرَّة، في جهة أخرى وبينهما فراغ، فراغ من شدة النغز، الوجع لا يحتمل، لا زال يلحّ عليَّ كلما زرت امرأة تلد، خاصة إذا ابتسمت لي من داخل الوجع.

يا لصبر النساء. ظلّ هذا الخاطر هاجسي الدائم، كيف لا أحتمل مثلهن تلك الأوجاع الأنثوية برُمَّتها، ألست بأنثى؟ أذكر وأنا في المدرسة أنني لم أكن أحبُّ الاشتراك في نشاط التدبير المنزلي، كنت أختار زراعةً وأنا حانقة على الاختيارات المُتاحة، لم يكن مُتاحًا لي أن اختار صناعة، ليه يا أبله؟

Scanned by CamScanner

تبحلق الأبلة مندهشة من جرأتي:

- يا ماما انتي بنت، انتي مسترجلة والّا إيه؟

- يا أبله مابحبّش التدبير المنزلي.

- أمّال هتخدمي جوزك ازاي.

كانت تلك الجملة من أسوأ الجمل التي تحرق دمي، وكأننا خُلقنا فقط من أجل خدمة الذكور، الله يلعن أبو جوزي، ولكني كنت أرد عليها حتى لا تتّهمني بقلة الأدب،

- مش هتجوز

ويرسي الأمر في النهاية على زراعة، المجال المتاح لكلا الجنسين، بنات وصبيان!

وعندما تزوَّجت، تزوَّجت في سنٍّ كبيرة، كنتُ بدأتُ أتلوَّى من توهُّجي المفاجئ، نار اندلعت في فراشي عندما التصقت بـ (واو) على بسطة سلمهم، كنت كالفراشة التي تلتصق بالزهرة تحت تأثير من أشعة فوق بنفسجية، دوري أيتها الفراشة، أكملى عددًا هائلًا من الدوائر، ارشفي بفمك المغروز من سائلها المكتنز بالرائحة، وللحقّ، لم أجد طوال رحلتي الأنثوية فوق تلك القشرة المزعجة مَنْ هو في زخم زوجي. زوجي مفعم بالرائحة، كما لو أنك تقعين على فوّاحة، ورائحة زوجي لم تكن كرائحة كل الرجال الذين مرُّوا بي، كانت رائحته معتَّقة وحقيقيَّة، كما لو أنك عند المنبع.

لم أنم تلك الليلة، أستلقي كي أجلس ثانية، ثم أعود للاستلقاء، هكذا على التوالي، وبين فخذيّ شبَّت نار ضارية.

المهم أنني عندما تزوَّجتُ اشترطتُ على (واو) أن نتقاسم المهام، وافق بلا

Scanned by CamScanner

أدنى تردّد، ما أسهل الكلام!

قرّرت عدم تكرار التجربة، يقولون إن المرأة تنسى وجع الولادة قبل أن تفطم رضيعها، ويمرّ خاطر الإنجاب مرة أخرى مرورًا حلوًا كلّما استدعتْ تلك المناغشات الصغيرة، يبدو أنني لست امرأة، أنا لا ينتابني سوى تلك الرعشة، ذلك الاصفرار في جلدي وإحساسي بالقرف، رغبتي في التقيؤ التي لم تفارقني حتى بعد الولادة بفترة، الانشطار المفاجئ أسفل سرّتي، حساسيّة الجرح!

حاولت مساعدة اليمامتين، وضعت لهما قليلًا من الماء في غطاء وبعض حبات من الأرز، وعندما عادت اليمامة الأم، بدا عليها الانزعاج، وأطاحت بالغطاء بقدمها فسقط في المنور.

ظلت اليمامة على حالها، تغيب حتى آخر النهار وتعود لفرخيها بالطعام، وظللت على حالي أعمل من الظهر حتى منتصف الليل، حتى اكتمل المشروع واشتد عود فرخَيْ اليمام، نفضا ريشهما المبلول واستبدلاه بريش جديد، لونه بنّيٌّ كثيف، ولا يثير فيَّ تلك الرجفة، لكنه لم يزل ناعمًا كملمس الفرو!

Scanned by CamScanner

(٩)

اسمي (أحمر)

اسمي أحمر، أو هكذا يسمّيني أبي. أمّي تقول إن قدمي على البيت كان قدم خير:

- اشترينا بوتجاز وتليفزيون.

أما (قهر) فدائمًا ما يذكّرها مولدُها بموت الجاموسة، التي عاجلوها بالسكين في اللحظة الأخيرة، ومنعًا للقيل والقال داروا في شوارع البلدة بولدها الصغير وهم يغنّون:

من ده بكره بقرشين، من ده بكره بقرشين، وفي الصباح قطعوا الأم إربًا لطمس معالمها، وبالكاد عوّضوا بعض الخسائر.

وجهي أبيض كالشمع، على عكس أخواتي الخمس؛ فألوانُهنَّ محايدة، وأخونا الوحيد لونه أغبر من لفحة الشمس، يعمل نجّارًا؛ نجار مسلح، فعلى الرغم من أنه كان يعد بالكثير؛ تراجع أداؤه بشكل غريب وهو في الصف الثالث الإعدادي، أهمل دروسه وبدأ يتغيّب عن المدرسة،

Scanned by CamScanner

ويلقي لنا في مدخل البيت بجوابات الرفت، يئس منه أبي بعد أن طرده من البيت آلاف المرّات، وفي النهاية سلّمه لمقاول في عزبة الأطاوي ليعلمه النجارة.

يقولون بأن مسرحية مدرسة المشاغبين كانت سببًا في ضياع جيل بأكمله، كان أخي أحد ضحايا تلك المسرحية!

سمّاني أبي بهذا الاسم لأن وجهي يحمرُّ عندما أغضب، وأنا دائمة الغضب، ولذلك فاسمي (أحمر)، شعري أصفر ولا ولاد الأجانب وعيناي خضراوان، ويقولون إن لساني كالمبرد، ولكني أغلب من الغلب، لطالما شكّل لي جسدي السمين مشكلة؛ فلم أكن برشاقة (بنأة)، تلك الساحرة الصغيرة، والحق أنني أرى الشيطان يطلّ من عينيها الساهيتين، فدائمًا ما تحوز إعجاب الجميع، وكأنّ تلك الداهية تزن كلماتها في ميزان سحري قبل أن تنطقه، اللعنة عليها أينما حلّتْ.

أختي (بنأة) عديمة الحياء، تتدرب كما الصبيان، فترفع ساقيها أمام الشباب، وتنام وسطهم أثناء التدريب، وتتكلم معهم بعاديّة وكأنهم بنات، ولا يخفى على الجميع علاقتها بالكابتن حسن، كل الفريق يعرف ذلك، ويعرف أكثر من ذلك، ودائمًا ما تحصد الجوائز لأنه يهتم بها عنّا جميعًا، ولكنه لن يهتم بواحدة في حجمي، ها هو يصيح كعادته:

- ارفعي رجليكي لفوق يا جاموسة.

- اهو انت اللي ستين جاموس، يلعن أبو اللي خلفوك!

- انتي بتبرطمي بتقولي إيه؟

أفر من أمامه خائفة:

Scanned by CamScanner

- مابقولش حاجه والله.

ها هي الحيّة (بنأة)، تنظر إليَّ من طرف عينيها بلؤم، زعلانه عشانه ياختي صحيح، شرمو...

تشير إليَّ بإصبعها المسهوك على فمها:

- اكتمي بُقِّك، هو لسانك ده إيه؟ زفر!

أحسست باكرًا بفورة جسدي، شيء رهيب بين ساقي يفرز نافورة من سائل لزج، استدرجت جارنا محمود ناحية المشروع:

- تعالى معايا، هورّيك حاجة حلوة.

تبعني محمود حتى وصلنا إلى مواسير عثمان أحمد عثمان، كنّا نقف بطولنا داخل المواسير، خلعت بنطالي وأريته تلك اللزوجة بين فخذيَّ، فشحب وتركني وجرى!

جاءني أول عريس وأنا في أولى إعدادي، طبعًا فأنا أجمل أخواتي، وأكثرهن أدبًا؛ فلا أسبسب شعري كـ (بنأة)، ولا أعود إلى البيت مثلها في منتصف الليل، جلست أمامه بوجهي الأحمر، و(بنأة) الملعونة ظلت تستجوبه وطلبت منه البطاقة.

- هيّ مراتك لسّه على ذمتك وجَيْ تخطب أختي!

كدت أصرخ فيها:

- وانت مالك يا حشريه،

إلا أن أبي دائمًا ما يصدِّرها في تلك المواقف.

- دماغها كبيرة.

هكذا يقنعني أبي، وأنا أحاول أن أفهمه حقيقتها الملتوية وغرضها الخبيث:

Scanned by CamScanner

- يا ابا دي مش عايزاني اتجوّز، دي غيرانه منّي عشان بايره وعلأ...

يقاطعني أبي قبل أن أكمل الشتيمة، فأبي للأسف يميل لها، حتى عندما تركت له البيت وأغلقت الشقّة وطلبت منه أن يدفع لها ١٠ آلاف جنيه لتتنازل عن العقد، كاد أبي أن ينصاع لها لولا أن وقفت لها بالمرصاد.

- إيه إيه إيه، عشر تلاف لما يلهفوها، ليه يعني؟. هوَّ البيت كله يساوي كام.

اتَّصلت بأخواتي، (قهر) و(هل) و(كربوناتو) و(دقدق)، تجمّعنا عند أبي:

- هتكتب لينا البيت دلوقتي.

وأبي ردّ علينا:

- ليه، هتورثوني بالحيا.

- يعني السوسة اللي فوق ضحكت عليك وكتبت لها عشر تلاف جنيه على ظهر العقد.

- بالعقل كده، هي مش بَنِتْ الشقة كلها؟.

- نعم يا خويا.. بعشر تلاف جنيه، ليه؟

طيّرت العريس بنت الجزمة القديمة بصرمها.

ظلّ أبي ساهمًا بعد أن تركت البيت، وكنّا كلما خضنا في خبثها أنا وأمي وأخواتي لم يكن يرد، كان يظل ساهمًا وعلى عينيه الكفيفتين ثمة حسرة بادية.

مات أبي وهو متعلّق بها، وربما كان يحمل لها إحساسًا مراوغًا

Scanned by CamScanner

بالذنب، بعد أن سكَّن شقتها وتركها تستأجر ايجارًا مؤقتًا، وهي لم تنس له ذلك رغم أنها التزمت الصمت، ولم تتحدث عن شقتها، أو تثور كما كانت تصرخ من قبل:

- يا با أنا اللي بنيتها، ده أنا شِلْت طوبها على راسي طوبة طوبة، ودخلت من غير جهاز على يدّك، يابا انت اللي مطفِّشْني من البيت بعمايلك السودا انت وامّي.

وكان أبي يرد عليها:

- ما انتي كنتي بتخصمي خمسين جنيه كل شهر، وبقالك عشر سنين، يعني فلوسك خلصت.

- يابا يعني أنا بنيت وصبَّيتْ ومَحَّرْت ودخَّلتْ مَيَّه وكهربا وبياض ونجارة بخمس تلاف جنيه، ليه حرام عليك، ده انت خدت في إيدك خلو رجل وكانت لسه سطح.

لا يرد أبي، قرر ألا يعطيها شيئًا ما دامت تخلت عنهم وتركتهم في تلك المرحلة الحرجة من عمرهما، وهي من جهتها لم تفتح الموضوع ثانية، قالت له بهدوء:

- أنا موافقة نتحاسب عنده، تقصد عند ربنا يوم القيامة، دائمًا ما تردّد نفس العبارة عندما يستميت الآخر أمامها على أمور كتلك، وأبي قال لها:

- وماله، احنا فين ويوم القيامة فين؟

لم تذرف دمعة واحدة على أبيها، الملعونة جاءت جنازته بعباءة ملونة، ولم تلبس مثلنا ملابس سوداء، جاءت وفي قلبها ابتسامة شريرة،

Scanned by CamScanner

حتى عندما حملوا الجثة المكفّنة لم تشيّعها بالصراخ كما فعلنا أنا وأخواتي، استدارت إلى الجهة الأخرى والتزمت الصمت، ألم أقل لكم بنت حرام مصفي!

قبل وفاته بأسبوعين حكت له هذا الحلم وهي تبتسم نفس الابتسامة الصفراء:

شفتك امبارح في مكان واسع وكلّنا واقفين حواليك، حتى محمد أخويا كان هناك، وانا قربت من ودنك وقلت لك:

- خلاص ميعادنا جه، هنتحاسب

شحب وجه أبي وقال لها:

- قصدك هموت يعني، حتى لو كده.. انتي كمان هتموتي.. أمّال هنتحاسب ازاي؟!

كان أبي يخاف من أحلامها، فدائمًا ما تتحقق، ذات يوم وكانت لم تزل طفلة استيقظت وهي تهذي بكلمات عن شيخ المسجد الذي في أول شارعنا، قالت إنها رأته في المنام بساقين مقطوعتين، وأن الرسول وصحابته، عليهم أفضل الصلاة والسلام، كانوا معها في الحلم، على وجوههم حجاب ما، وقد أقاموا عليه الحد، وأبي قال لها:

- انتي بتخرّفي ولّا إيه، الراجل مسافر السعودية من ييجي ٥ سنين.. يعني انتي ما توعيش عليه أصلًا! وتركنا وخرج.

عاد أبي مسرعًا بعد قليل وأيقظها من نومها بعد صلاة الفجر، وأخبرنا أن شيخ المسجد إياه عاد هاربًا من السعودية بعد أن داست سيارته أسرة سعودية، وفرّ قبل أن يتمكّنوا منه، ولكنه أصيب بالشلل من شدة الخوف.

Scanned by CamScanner

ومن وقتها يعتقد أبي في صدق أحلامها؛ لهذا شحب وجهه عندما حكت له ذلك الحلم اللعين، ومات أبي بعدها بأسبوعين!

Scanned by CamScanner

كل امرأة لديها القدرة على الوصول إلى النهر

الواقع أسفل النهر![٦]

---

(٦) كلارسا بنكولا، نساء يركضن مع الذئاب

Scanned by CamScanner

(١٠)

لطخة دم

لم تعاودني تلك النغزة هذه المرة، هل كففتُ عن غيرتي عليه، أم أن مشاعرًا جديدة تنتابني في الآونة الأخيرة؟ فمنذ أن عاد إلى العمل في بوسي كات، وهو يتحدث عن نيّته الجديدة:

- بصراحة كده، أنا مش مقتنع بموضوع الصلا والصوم، انا بصلّي زي ما يكون عايز اخلّص واجب تقيل، قلبي لا يعمل!

يبتسم وهو يقول:

- أنا أصلًا لو كنت واحدة ست كنت اشتغلت مومس.

- بقولك ايه أنا عايز اتحرّر، يعني بصراحة كده أنا روحي مش جايبه التزام وكده.

ليلة أمس فاجأني بنيته:

- أنا بافكّر أهدي روايتي الجديدة لواحدة زميلتي في البار، أصلها ساعدتني كتير فيها.

Scanned by CamScanner

عندما جاب الكلام بعضه تلك الليلة تحدّث عن زميلته التي تسبّبت في تعليقه يومين من عمله، بعد أن أثار غيرة زوجها، وقال له الجملة الشهيرة التي عادة ما تُقال في هذا المكان وفي مثل هذا الموقف:

- لو غيران عليها قعَّدْها في البيت.

ردّ عليه الرجل على الفور:

- طب انت موقوف يومين، ما تجيش بكره ولا بعده.

باغته سؤالي عن اسم الزميلة التي كان يقترح ليلة أمس أن يهدي لها روايته الجديدة، فأمسك لسانه لبعض الوقت ولم يرد، أعرف بحاسة الأنثى ماذا تعني تلك المباغته، ولكني تجاهلت هذا الإحساس ومارست معه الجنس كعادتي كل ليلة، ولم أشعر بتلك النغزة التي ظلّت تعمل في قلبي لفترة طويلة منذ خمسة عشر عامًا إثر موقف مشابه، كنّا في شقّتنا القديمة في بيت أبي، وكنت أسخِّن له العشاء، وكان هو يستحمّ، فأخذت أدندن بأغنية فايزة أحمد:

حبيت قليل الخير

باعك ولاف ع الغير

في حي غير الحي

خرج (واو) من الحمام ورغوة الصابون ما تزال على وجهه الذي شحب بشكل مفاجئ:

- انتي ليه بتغنّي الأغنية دي؟

- يعني إيه ليه؟

وقتها، أحسست بنغزة في قلبي، ما الذي أوجعه في أغنيتي؟، ربّما لمست

Scanned by CamScanner

وترًا حسّاسًا، رحت أتتبعه حتى تيقّنت من خيانته.

شيء ما تبدّل، ربّما تلك الذات المتضخّمة في ذلك الحين لم تكن تتوقّع خيانة ما، كانت أختي (هُل) دائمًا ما تقول لي:

- وانتي تخافي ليه من خيانة ولا دياولو، انتي حلوه وعاملة زي ولاد البندر، يعني جوزك يبوس إيده وش وضهر، الدور والباقي ع الغلابة اللي زيّنا!

تذكّرت كلامها هذا وأنا في في قلب الحدث، فضحكت حتى البكاء، كنت وقتها حاملًا في نور، وجهي كالليمونة من وطأة الحمل، حلمتا صدري كورق التوت من شدّة الكَلَف، وبطني أمامي كالتلّ، وزوجي لا محالة يخونني.

أنا الآن أقوى، أقوى حتّى من أن أتّهمه، قطع جرس الهاتف حواري مع نفسي،

أخبرتني (أحمر) في التليفون أن ابنتي أصبحت آنسة، أحسست بالارتباك.

- قصدك إيه؟

- جاتلها الدورة من شوية.

وضعت السماعة بنفس مثقلة ومدهوشة، نور الطفلة الهشّة، كيف ذلك، والنهارده وهيَّ عند خالتها؟

لماذا يصنعنا الله هكذا أمام أعين الغرباء!

أحسستُ بالخزي عندما سقطت أولى القطرات الحمراء في لباسي، تركت بقعة مريعة على المريلة، وأنا في المدرسة، التصقت بالدكة، وأعملت عقلي، بعد انتهاء اليوم الدراسي سألصق عليها تكت، وأدير البقعة للأمام، وأحمل حقيبتي فوق بطني بيدي، حتى أصل إلى البيت، قطع مدرس العربي أفكاري:

Scanned by CamScanner

- يا بنتي اطلعي ع السبورة.

تجمّدتُ مكاني.

- جرى ايه يا بنتي بقولك تعالي.

لم أرد، كنت أحس بقنبلة تنفجر في بطني، حلقي مر، ورأسي تدور.

تصاعد الموقف مع المدرس، واقترب مني بعصاه:

- بقولك قومي اقفي.

ازددت التصاقًا بالدكة، وأصابني الخرس.

كان آخر شيء رأيته من خلال ضوء أحمر ظلّ يتكاثف عبر جفوني المثقلة، عصاه التي هوت على جانبي، بعدها تكومت عند قدميه، وبيننا لطخة الدماء!

Scanned by CamScanner

(١١)

حكاية (كَرْبُونَاتُو)

اسمي (كربوناتو)، أو هكذا يسمّيني أبي، ثمّة يد تلقّفتني حين خرجت من رحم أمي، سمعت صوتًا يقول: ناوليهالي يا ماما

نظرت في عينيَّ نظرة مندهشة، وهي تتطلّع لألوان قوس قُزح التي ظهرت في عينيّ لحظة ولادتي، وكانت تلك بمثابة الإشارة، فتلك اليد ستظل تحوطني طوال سنوات عمري حتى يحدث ما لا يحمد عقباه، وتتخلّى عنّا جميعًا بمنتهى الصمت.

كان أبي وأمي محيط عكننة، لا يكفّان عن الشجار، ليلًا أو نهارًا حتى في الأعياد والمناسبات، بل للصدق؛ أبي وأمي ينتهزان تلك المناسبات لتحسين مواهبهما الشجاريّة، وإثارة حالة من الإكتئاب تطول كل من في بيتنا أو يمر به، ففي رمضان بوسعك أن تسمع أقذع الشتائم، وأهول الإهانات، أمي تتهم أبي بأنه رجل فلاتي، لم يترك امرأة في بلدتنا إلا واحتكّ بها، حتى أمها، حماته، حين ذهب ليوصلها إلى بيتها، بعد إحدى الزيارات التي

Scanned by CamScanner

كانت تضطرُّها لحمل شيلة ضخمة فوق رأسها تبلغ طولها تقريبًا، إشي فاكهة وفطير مشلتت، وجبنة قريش وزبدة وقشطة، وبطة متلغغة وعيش مقرمش، وحاجات، وحاجات، وكانت جدتي تبدو كالأراجوز أسفل السبت، كنا نتندّر عليها، فتشتمنا،

- يا مفاضيح.

وعندما توغّلا؛ أبي وجدتي في أحد الغيطان، تلفّت أبي خلفه ليتحسس الطريق، ثم انقض على جدتي يريد بها سوءًا. وأبي يكيل لأمي اتهامات لا تقل بشاعة، لو صدق نصفها فمن المحتمل ألا نكون أولاده أصلًا، ولكن (هُل) أختنا الكبيرة تؤكد أنهما كاذبان، وأنها لم تلحظ على أمي أي شين:

- دي طول عمرها مَكْفيّة على الماكينة، ده راجل كداب.

ولكني وأنا طفلة، ولم أكن أعي كل ما حولي أحسست يومًا بشعور غريب، يبدو أن ثمّة إدراك ما في مرحلة الطفولة، جاء أحد أصحاب أبي ولم يكن أبونا في البيت وكنت أجلس على الكنبة، التي لم يغيّرها الله وأبحلق في أمي برعب وهي تقبل الضيف عند رحيله في خده!

بالطبع، لم أحكِ هذه الحكاية لأي أحد كان، ولكنها لم تزل تخايلني كحلم، من خلف ستائر الزمن، خاصّة حينما ينطق أبي بتلك الكبائر أثناء العراك.

لم أكن في تفوق (بنأة) في الدراسة، والحقيقة لا أحد من أخواتي لحقها، فيما عدا (قهر) التي كانت تناضل كمتسابق في سباق ملتهب، غير أنها، وهذا هو المهم، حصلت على شهادة جامعية، وكانت أوّل فرد في أسرتنا يدخل الجامعة، بعدها، وبحكم السن دخلت (بنأة) الجامعة وأصبح أبي لديه بنتان جامعيّتان.

Scanned by CamScanner

كان أبي يُجِدُّ في التفكير، قبل أن يقول لنا:

- أي عريس عايز يخطب واحدة منهم يدفع الأول ١٠ تلاف جنيه ونحن نسأله بدهشة.

- ليه؟

فيرد بثقة:

- تمن تعليمهم.

إلا أن الزمان لم ينوّل أبي شيئًا من ذلك، لا ذلك ولا غيره، فقد تأخّر زواج (قُهر) كثيرًا وباتت أمي تعيّرها:

- يا بايره، يا شيبة عرعر.

وبالرغم من أننا لم نكن نعرف معنى شيبة عرعر تلك؛ فإن أمّي لا يخرج من فمها سوى أقبح الكلام، حتى ولو كانت تمدحنا!

ذات يوم أخذنا أبي لنتفسّح، هل كان الأمر كذلك أم أنه كان يريد أن يترك البيت خاليًا لأمي، هل أراد أن يتلصص عليها ليتأكّد من صدق مخاوفه، ربّما، فأمّي عندما تتشاجر مع أبي تتهمه بأنه يتبعها أينما ذهبت:

- كنت باشتري بصل، وانا موطّيه بانقّي البصل لمحت شبشبه جانبي، وبعدين اختفى.

أمي تقول له:

- أصل ديلك نجس، عشان كده فاكر كل الناس نجسين زيّك، دانا رفراف توبي أنضف من أجعس جعيس في بلدك.

المهم أننا أنا وأبي وأخوتي جلسنا تحت شجرة نبق، وأخذنا نجمع الحبّات

Scanned by CamScanner

الصغيرة التي تساقطت حولنا، كنا نغسلها في «أناية» صغيرة ندلدل فيها أرجلنا ثم نأكلها، ويوم خطبتي، وبعد أن انصرف الناس والعريس وأهله، كانت (أحمر) تجري خلفي لتنتش قطعة الجاتوه منّي وارتطمت في الحائط، رطمة مفاجئة، فتقيَّأت دمًا، دمًا كثيرًا، سال على هدومي وعلى الأرض والحائط، دمًا مخيفًا ومتخثرًا وعفنًا ويومها عرفنا الكارثة.

وأنا لا زلت في التاسعة من عمري، أصبت بشلل الأطفال، كانت إحدى ساقي تنمو بشكل طبيعي، بينما الأخرى عالقة، وكانت (بنأة) لا تزال صغيرة، إلا أنها كانت مرافقتي في مستشفى أفرينو، ظلّت مرافقتي إلى أن قرّرت المستشفي تحويلي إلى عين شمس التخصصي، وبعد الجري واللف والدوران صرفت الوزارة مبلغ العملية للمستشفى، وبصمت أمي على إقرار بتسليم المسامير العهدة عند وفاتي للحكومة، قاموا بتثبيت مسامير بلاتينية في ساقي المشلولة، والحمد لله نجوت من شلل الأطفال بأعجوبة.

وطبعًا لم يكن أبي من المشاركين ولو بزيارة، فهو يفضل البقاء في المنزل، وتحديدًا في سريره، ملفوفًا بلحافه!

أمّا الكارثة الجديدة فكانت البلهارسيا، أصابت الكبد بتليّف، والطحال بتضخم، وأحدثت دوالي في المريء، أبي يتعجب من موضوع البلهارسيا هذا، فقد ولدت هنا في القاهرة، ولم أذهب إلى بلدتنا مطلقًا؛ فمن أين جاءتني البلهارسيا؟ وأنا أتذكّر فسح أبي والنبق و«الأناية» التي كنت أدلدل فيها قدميَّ!

ربما أدرك أبي فداحة العلاج، خاصّة وفي رقبته ست بنات وولد خائب، لا يعود إلى البيت إلا ليطرده من جديد لينام في الشارع.

Scanned by CamScanner

وللصدق؛ جميعنا لا يعرف هل خاب أخي بسبب معاملة أبي السيئة له، أم أن أبي كان يسيء معاملته لخيبته الأوية؟

كنا ست بنات بلا ظهر، وللحقيقة كانت (بنأة)، تلف بي من عيادة لعيادة ومن مستشفى لمستشفى بحثًا عن علاج.

ولما كنت أحيانًا أغيب عن الوعي كانت تبحث بخوف عن فاعل خير ليحملني عنها، حتى نصل إلى أقرب مستشفى، كل الرجال الذين ساعدوها كانوا دائمًا يتهمونها بسوء النيّة، فقد كانت تراقب أصابعهم وهم يلفُّونها حول جسدي وفي عينيها اتهام ما!

وأحيانًا كانت تجرجرني إذا توفّرت أرض ملساء لا تخدش جسدي الذي تصفّى من تقيُّئِ الدماء، أفضل من أصابع الغرباء. كانت تنام على بلاطات غرفة العناية المركزة، حتى ينخر البرد عظمها، تلك اليد التي تلقفتني منذ كنت صغيرة سيأخذها منّا زوجها اللعين ويرحلان في صمت.

تكبرني (بنأة) بستة أعوام، بيني وبينها (أحمر)، ظلّت دومًا بيني وبينها، فعندما عادت من السويس مع زوجها، اختارا سكنًا بالقرب من بيتنا، همست في أذني كعادتها:

- شايفة، مَنِزْلِتْش من شقتها تشيل معانا العزال.

- انتي عارفه إنها مش متعوّده ع الحاجات دي.

- يا سلام، يعني متساعدش اختها.

- يابنتي جايّة من شغلها مهدودة.

Scanned by CamScanner

(١٢)

اسمي (دقدق)

كنت آخر زرع أبي في الحياة، آخر العنقود سكّر معقود، ظلّت أمي في المستشفى بعد ولادتي، بعد أن جاءها نزيف حاد وهي نائمة، كانت قد واصلت العمل على الماكينة ليومين متتاليين، فالوقت موسم الخيّاطين كما يقولون، وأمي خياطة، لا تكفّ عن الخياطة، ربما لهذا كنت أسمع ضجيجًا هائلًا وأنا في أحشائها، كلنا هكذا أنا وأخواتي الخمس، نمتلئ بالضجيج والارتباك، وغالبًا ما تقع الأشياء من أيدينا فيما نجهز الطعام، أو نتسوّق.

ظلت أمي في المستشفى عقب ولادتي، وأرسلوني إلى البيت؛ فقد شقّ الأطباء بطنها من السرة حتى العانة، إلى الآن أرى تلك البلورات المنتفخة في بطن أمي من أثر الجرح، تولّت (هُل) إرضاعي ريثما تعود أمّي فقد كانت أمًّا لطفل مات بمرض خبيث، وكانت وقتئذ مجرد طفلة ترضع طفلين!

(بنأة) تقول إن أبي هو السبب، فغالبًا ما يظلّ يلحّ في الطلب حتى تقع الأشياء من أيدينا من فرط التسرُّع، حاسّة التذوُّق لديه مشتعلة، ويشرع

Scanned by CamScanner

في بلع ريقه قبل أن يريِّل على نفسه من ريحة الأكل، ولا نتلقى منه سوى التهزيء والإهانة، أبي رجل سليط، رغم أنه من الصعب إقرار الواقع، لكنها الحقيقة وربنا يسامحني على ما قلته، فعندما تطلّقتُ وأحس بأني سأقع في أرابيزه، كان يوقظني على السباب لأنظف البيت وأبحث عن وظيفة حتى يعرف راسه من رجله:

- أُمَّال يعني كنا بنعلّمك ليه، ده انتي اتصرف عليكي آلاف.

والحقيقة أني بالفعل صرفت آلافًا، ولكن أبي لم يدفع من تلك الآلاف مليمًا أحمر، تعاونت (بنأة) و(قهر) وأمي، تقاسموا مصاريف المعهد الخاص، ثمن الدروس، الكتب، لبس شتا ولبس صيف، جزمة بيضا وواحدة سودا، شنطة كبيرة وشنطة وسط، مواصلات رايح جاي، وجبة خفيفة؛ ساندوتش يعني.

قرّر أبي أنه لن يعلِّم بنتًا تاني، اتجوزي زي اخواتك، يعني أنا خدت من وراهم ايه؟!

(بنأة) تصدرت الموقف.

- هعلّمها أنا

ولم يكن أبي فقيرًا كما يدّعي، فقد اكتشفنا أنا وأخواتي أنه كان يرقد على كنز، نعرف أنه مولع بالتوفير، يحطّ القرش على القرش ليصبح بريزة، والبريزة على البريزة حتى تصبح جنيهًا، والجنيه على الجنيه حتى يصبح عشرة، ولكن لم يكن يخطر لنا على بال أن الأمر وصل إلى هذا.

فيوم أن مات أبي طلبت أمّنا منّا بمنتهى البراءة وهي تبكي طبعًا، فلا يزال جسد أبي ساخنًا وقد فرّت منه الحياة لتوها، أن نبحث في حشايا مرتبته عن تحويشة عمره، دخلت (هُل) و(أحمر) للبحث أسفل جثمان أبي عن الفلوس

Scanned by CamScanner

الذي ظلّ يدّخرها طوال تلك السنوات، وضحى لأجلها بكل غال ورخيص، ولا نعلم عنها شيئًا.

عثرا على لفة صغيرة تحتوي على خمسمائة وخمسين جنيهًا بالتمام والكمال، خمسمائة جنيه يا محترم، عشرة جنيه يا أستاذ، انت بقيت زبوني الليلة!

أذهلتنا المفاجآة:

- ازاي، أبويا كان معاه فلوس كتير وكلنا كنا عارفين.

- يمكن شايلهم في حته تانية.

- حته تانية فين، طول عمره بيحوّش في المرتبة عشان تفضل الفلوس تحت طيزه.

أمي قالت وسط دموعها وقد اصفرّ وجهها واحمرّ وتدرّج بكل الألوان:

- أصله كان بيصرف كتير ع العلاج قبل ما يموت.

لم نقتنع كلنا بموضوع الخمسمائة جنيه هذا، وصلت (بنأة) متأخّرة في هذا اليوم ونظرت في عينَيْ أمي نظرة ذات مغزى، وأعلنت بهدوء أنها تعرف كم كان يخبّئ أبي لأنها الوحيدة التي كان أبي يأتمنها على عد الفلوس وأستكتهم له في أساتك:

- كام؟

- كان هذا سر أبي وعدته ألا أفشيه.

كانت أمي هي الوحيدة التي شهدت احتضار أبي ثم تولّت إبلاغنا، ولما لم تجد تبريرًا واضحًا لاختفاء الفلوس حاولت إلصاق التهمة ب(بنأة):

- حلمت بابوكم امبارح، آل إيه، قاعد ع السرير وبيعد فلوس لـ (بنأة)، ما

Scanned by CamScanner

هو كان بيسلّفها.. يمكن يكون سلّفها فلوسه قبل ما يموت.

ولكنا كنا نعلم جيدًا أن هذه افتراءة من افتراءات أمي، فقبل وفاة أبي بعام احتدم الأمر بين أبي وبين (بنأة) بعد أن صمّمت أن تغادر البيت وتسكن بعيدًا، وطالبته بثمن الشقة التي بنتها في بيته، وأبي رفض أن يعطيها أي فلوس فقد اعتبرها تتخلى عنه وهو كفيف، حسمت الأمر كعادتها:

- يا با هتتحاسب.

- احنا فين ويوم الحساب فين؟

ومن يومها غادرت البيت إلى غير رجعة وأخذت معها نور قرة عين أبي، وأرسلت له عقد الشقة عندما اتصلت بها (أحمر) وأخبرتها أنه سينكر إمضاءه على العقد وأنه ينوي كسر الباب بالعافية:

- يووه شوفيلك حل مع ابوكي.

أرسلت إليه العقد ومعه المفتاح وكتبت تنازلًا، ولم تزره إلا قبل وفاته بقليل.

والحقيقة أننا لم ننل من ميراث أبي أي شيء، وما حدث بعد ذلك أكّد لنا شكوكنا، فقد قلّبته أمي على ما يبدو وهي تدّعي المسكنة، ومن يوم أن مات وهي تطلع عمرة كل عام، حتى لا تترك لنا مليمًا واحدًا.

حذّرتني (بنأة) قبل زواجي، قالت لزوجي:

- مش انت مهندس أد الدنيا، أنا أفضّل إنّها تتجوز زبال ومتتجوزكش.

وزوجي لم يغفر لها ذلك القول إلى يوم طلاقنا، وظل يتعمّد إهانتها على مسمع ومرأى من الجميع، وأحيانًا كان يستخدم ألفاظًا بذيئة، زوجي يؤمن حتى النخاع في أحقيّة الرجل المطلقة في ضرب زوجته، من باب التأديب،

Scanned by CamScanner

ودائمًا ما يردّ على (بنأة) بالحديث الشريف، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها!

وفي إحدى مشاجرتنا حبسني زوجي في البيت وخرج، وعندما علمت جاءت من بيتها ومعها نجار، وكسرت الباب، واتّصلت بزوجي وأشهدت الجيران، في ذلك اليوم ظلّ زوجي يردح لها كالنسوان من بير السلم، ويقول لها، يا كذا ويا كذا، فردت عليه:

- عارف لو مكنتش لسه جوز اختي كنت فلقتك نصفين.

تخلصت من زوجي بأعجوبة وبحيلة ماكرة، فعندما ضربني ضربًا كافرًا في المرة الأخيرة، رددت عليه لأول مرة:

- يا بن الكلب.

داس على دماغي بشبشبه، فصرخت.

- يا بن الجزمة، يا وسخ.

ولم يصدق زوجي أذنيه، فأنا مسكينة وجبانة كما يقولون، وأخدم زوجي حتى أني لا أكلفه عناء خلع حذائه، فكنت أخلعه بدلًا منه وأقبّل قدميه، وأمسّد ظهره.

المهم أن زوجي حدفني أثناء الشجار كذا حدفه، ارتطمت بالغسالة في إحدى تلك الحدفات، ثم ألقى بي على السلم بجلابية البيت، وأغلق الباب ولما أخذت أخبط على الباب بحدة:

- طاب هات العيال.

فتح الباب ورمى لي العيلين.

وهنا وجدت نفسي في ورطة، أنا في الشارع وزوجي لن أطول منه حقًّا ولا باطلًا؛ فمشواري مع القضاء لم يسفر عن أي نتيجة، فضلًا عن نصب ونهب

Scanned by CamScanner

المحامين، لا سامحهم الله ضيعوني، وها هو الخلاف يتجدد مرة أخرى، وأبي الذي قال لـ (هُل) ذات يوم: يا زارع في غير أرضك، يا باني في غير ملكك؛ لأجل فرد واحد، ماذا سيقول في طفلين، وقد أنتهي مثلها نفس النهاية، وربما اضطررت أن أتزوّج رجلًا كأبي عبادة، يعاكس حتى أخواتي، وربما ابنتي، وربما اغتصبها كما نقرأ ونسمع، ألم ترفع (هُل) زوجها من فوق زوجة أخيه في إحدى المرات، تحسست خطواته على السلم ذات يوم ولمّا توقّف عند شقة أخيه وغاب نزلت وراءه وظلّت تتنصّت على باب الشقة وفتحته على غفلة، ووجدت زوجها فوق زوجة أخيه؟ هل انتقم عبد الله أخوه منه عندما علم، هل نام هو الآخر مع زوجته عنوة؟ كل تلك الشكوك تراودني وأنا أنظر لآخر أبنائها، كانت تعدت الأربعين وكفّت عن الانجاب، فجأة عرفنا أنها حامل، وبعدها قُتل عبد الله أخو أبي عبادة، استدارت عربة نقل ودهسته على غفلة في منطقة معزولة، وبقي الطفل نسخة طبق الأصل من عمه، ويعاني من تأخر عقلي.

لذلك اتفقت في تلك اللحظة مع (أحمر) أن تحدث بي عاهة، خبطة سكينة، ضربة مطوه!

اشترينا موسي وذهبنا إلى المطافي القديمة، وعندما شقت ذراعي شقًّا بسيطًا، صرخت فيها، حرام عليكي هي كده جناية، كنت أقف في الشارع حافيه بهدوم البيت، وقتها شقت ذراعي بالموس بعنف حتى لفظ أحشاءه للخارج، فجريت على مستشفى ناصر «أفرينو سابقًا» وحررت محضرًا بالواقعة.

ظللنا أنا و(أحمر) نتكتّم الأمر بيننا، والذي أثبت التهمة على زوجي وجعلها تلبسه تمامًا أن جسدي كان ممتلئًا بالكدمات والرضوض والخرابيش، وهذا

Scanned by CamScanner

والله أثر ضرب زوجي المفتري، اتصلنا بـ (بنأة) وحصّلتنا على المستشفى، كانت في عملها في ذلك اليوم، وكان اليوم السابق لوقفة عرفات، إلا أنها لم تكن تتغيّب عن عملها في أي إجازة، حتى أن أولياء الأمور كانوا يسألونها:

- هو انت يا مس ما بتروّقيش بيتك في الأعياد زيّنا.

ولكنها لم تكن متكيفة مع عاداتنا، لم تكن تقلب الدنيا في الأعياد كما كنا نقلبها، تلزم البيت في الأعياد ولا تفارقه خوفًا من الزحام، تنظف البيت كيفما اتفق، حتى الأفراح والأتراح لم تكن تتعامل معها كما كنّا نفعل، فيوم زفافها، دخلت الشارع في صمت، وفوجئت بالجيران يفقعون الزغاريد وينيرون لها مصابيح بيوتهم الأمامية، والكل يستغرب:

- عروسة من غير فرح ولا زفّة ولا حتى لمبة واحدة.

دخلت فلجَّمتْ الشارع بأكمله، حتى أنّهم تناسوا عداوتهم مع أبي وأمي وأناروا لها المصابيح، والحقَّ أقول، لقدْ ظلّت مثارَ الحديث في شارعنا طوال الشهور السابقة لزواجها، فعلى الرغم من اهتمامها الزائد بمظهرها، تخلّت عن خُيَلائها بمجرد أن دخل زوجها بيتنا يطلب يدها، طلبت من أبي بكلمات حاسمة كلنا لا يجرؤ أن يطرحها:

- مش عايزة ولا كلمة عن المهر أو الشبكة أو أي تفاصيل، أنا وهو هنتفق.

وأبي قلب حاجبيه بدهشة:

- يعني هنقعد كده ساكتين، طب نتكلم وانتو اعملوا اللي عايزينه.

كان أبي ضعيفًا أمامها، وكان يعمل لكلمتها ألف حساب، غير أنه تلجّم عندما دخل (واو) ولم يجد داعيًا حتى للكلام.

كلنا أصابنا الذهول من اختيارها، فقد كانت كقطعة الحلوى يتهافت عليها

Scanned by CamScanner

الذكور، وصعبة المراس، عيناها تبرق كالأطفال، وكان لهما بريق عسلي خلاب، جسدها ملفوف كالحوريّات ومدملج، حتى أن النساء كنَّ يعاكسنها على طول الطريق، مأخوذة بالكتب بشكل جنوني، تقضي يومها بأكمله وفي يدها كتاب، تعلّمت حتى كرهنا التعليم، إلى الآن وهي زوجة وأم لم تزل تواصل تعليمها بشكل غريب، أما (واو) فكان كارثة بكل المقاييس، مجرد طفل يصغرها بأعوام، بلا شهادة، بلا وظيفة، ويبدو عليه الفلس:

- يا بنتي انتي اتهبلتي، ترفضي دكتور ومهندس وجواهرجي، وتتجوّزي ده؟

وجم أبي، ولطمت أمي

- أكيد غلطت معاه!

كان كل من يقابلها يضرب كفًّا بكف، ويغني:

بطلوا ده واسمعوا ده

يا ما لسّه نشوف وياما

الغراب، يا واقعة سودا

جوّزوه أحلى يمامة

وكانت تضحك بغنج وتغني معهم:

هيّ كانت فين عينيكي، يا يمامة

لما دوّرتي بإيديكي ع الندامة

أخيرًا أصبح بيدي كارت أستطيع أن أساوم زوجي عليه، يطلّقني ويترك لي حضانة الولد والبنت مقابل التنازل عن القضية، وافق زوجي حفاظًا على سمعته، مهندس بقى! أخيرًا أصبحت حرّة بعيدًا عن جنون أبي ولسان أمي!

Scanned by CamScanner

(١٣)

العودة لنقطة الصفر

دائمًا وأبدًا، تجد المرأة نفسها بين ذكرين، أحدهما الذكر المتطفِّل الذي يحاول جسَّ النبض برسالة ما، وآخر قد يكون أخاها أو أباها أو زوجها، وهو ما يحدث لي، يحدث في بعض الأحيان أن يشم زوجي أو أن أبلغه بنفسي أن ثمّة متطفل، ورغم حِدَّة طبعي في هذا الشأن مع الآخر المتطفل الظريف الخفيف؛ ينتهي الأمر بخصومة بيني وبين قطب الكون الأوحد؛ الذكورة. المتطفل قد يكون صاحب عمل أو أستاذًا جامعيًّا أو شخصًا يمكنه أن يرد لي الإهانة بطريقة أو بأخرى بعد أن يؤكّد لي عدم صدق ظنّي بشأنه، وأنه كان يتصرّف بتلقائية، وأن ثمّة سوء فهم في تفسير رسالته في وقت غير مناسب، أو اتصاله، وانفلات كلمات إعجاب تدل على إحساسه بالأخوّة ليس إلا، وما يحدث بعد ذلك، والذي يضطرني في النهاية إلى الشجار معه، وإنهاء مصلحتي لإشعار آخر؛ يكشف عن وجه الذكورة بأكمله، أما زوجي فغالبًا ما يطأطئ رأسه، بعد ادّعائه المعهود بأنه لا

Scanned by CamScanner

يزعل من أشياء ناقصة كتلك، ثم يلتزم الصمت، ثم يتشاجر معي بعد أن يدير الموضوع في رأسه بحثًا عن ثغرات، ثم الإدانة المطلقة، وبعدها تبرئتي على مضض؛ فقد أوحشته، وإدانة الذكورة المريضة، زوجي يتخذ ذرائع من مواقف كتلك حتى يجد مبررًا لعزلي عن العالم.

منذ خمسة عشر عامًا وأنا أعمل من البيت، أدرس في البيت، أترجم من البيت، وأحيانًا أتسوّق من البيت، وللحق كنت من اخترت هذا المصير، ولكنه الغضب المكتوم من إحساسي دائمًا بالإدانة وتصاعد دمي وتوقف قلبي من محاولات الذكور الباردة وقلة عقل وقلب زوجي من أن يَسَع رهافتي!

ذات يوم استيقظت من النوم على صوت السبَّاك، ففتحت له الباب بعد أن لبست إسدالا من رأسي إلى قدمي، وكان وجهي منتفخًا قليلًا من أثر النوم، خصوصًا أني طسيت وجهي بشوية ميه ع الحوض بسرعة، وعندما استدار ليحدثني لمحت في وجهه تلك الدناوة الذكورية، ابتعدت خطوتين للوراء وغلّظتُ صوتي!

ليلة أمس جاءني حلم، كان حلمًا كابوسيًّا كالعادة، بداية من المكان؛ سطح منزل من تلك السطوح التي تبعث على الاكتئاب، أرقد على السطح الإسمنتي بخشونته وينحني فوقي طبيب، بيده مشرط يخطّط ذراعيَّ بقلم أحمر، ثم يمرّ على الخط بمشرطه دون أن ترتعش يداه، أفتح عينين مثقلتين من لسعة الجرح لأنبِّهَ الطبيب أنني لا زلتُ في كامل وعيي، أحسُّ بسريان مشرطه البطيء في طبقة جلدي، ينتابه الذعر لوهلة،

Scanned by CamScanner

ويعاود عملية الشق، ينتفض جسدي في الهواء، فيبدو في مشهد الحلم كما لو كان ثيابًا فارغة، وتنبجس في موضع الكُمَّيْن نقطة أو نقطتان من الدماء، يحدث شيء قدري، تبدأ بجلبة من زاوية ما، وأرى الطبيب يتركني ويفرّ في اتّجاهها دون أن يسدّ الجرح، أقف بجوار حائط، وكل حواسّي تتذوّق الجرح بألمٍ غير محتمل، أنظر حولي بيأس بحثًا عن مساعدة، بينما يدهشني أن تلك المسافة التي قطعها الطبيب في ذراعيَّ لا ينبجس منها الدماء، وكأنها لا زالت تحت صعق لحظة القطع!

كانت جلّ أمانيها

أن يدس الله تحت وسادتها حلمًا جميلًا

به بشرٌ حقيقيون

يدركون فناءهم الوشيك

كعودِ ثقاب،

لا بُدَّ أن يخرج من المشهد الكوني،

عقب انطفائه.

حين تصحو،

بعد ساعات من المشاهد الملتبسة

والأماكن الموحشة

ثمة دلالات لا تشي بخير

أيها الإله الرحيم

مُدَّ يدك اليمنى تحت وسادتي

Scanned by CamScanner

لم أستجدِ سوى حلم

ولتزيِّنه بالزهور

والفراشات الملونة

وبعضًا من زقزقات الطيور

لأكمل ما تبقّى

فوق قشرتك الأرض

وأنا أجترُّ بعرفان

نشوة الحلم!

هكذا يا صديقي تمضي بي الأيام، من حلم لحلم، منذ أن جاءتني تلك الرسالة المشؤومة، حتى بتُّ أتحسَّس موضع قدمي، أطالع حظي اليوم وحظك وحظ نور كل ليلة كمن أصابته فوبيا القضاء والقدر.

مرحبًا س

أنا وفريقي في إدارة المخاطر، قُمْنَا بتعليق حسابك، بعد أن تبيَّن لنا ارتباط حسابك بكلٍّ من:

جاسون صني Jason Sunny

نتالي نور Natalie Noor

رانيا وليد Rania Waleed

يرجى إمدادنا بمعلومات عن هؤلاء الأشخاص، وبناء عليه قد يتم اتخاذ اجراءات، علمًا بأنّه قد يتمّ رد أرباحك بين هذه العقود للمصدر الأصلي، كما لن يكون بوسعك في الأثناء التطبيق لأي وظيفة جديدة.

Scanned by CamScanner

نشكرك على تعاونك

فريق إدارة المخاطر

Eli

Upwork Risk Management Team

ربما لم أحمل الأمر الكثير من الجدية، بالرغم من تسارع نبضات قلبي بشكل مفاجئ، فلديّ على أب ورك ولأول مرة رصيد ضخم، أسرعت أفتح صفحتي فوجدت مستطيلا أحمرَ بداخله تلك الكلمات:

«تم تقييد المعاملات المالية للفري لانسر س، لمزيد من المعلومات أو الاستفسارات يرجى الاتصال بالدعم الفني»

قمت بالرد على الرسالة:

عزيزي إلي

لا أستطيع فهم هذا الإجراء الذي اتخذتموه، وإنه لمن المحيّر أن تظن أنت أو فريقك أنني أملك معلومات عن تلك الأسماء المذكورة عالية، فنحن كفري لانسر نستمد معلوماتنا عن العملاء بناء على ما يتم نشره من قِبَلِكم، ولا نتعامل مع العميل إلا بعد تأكيدكم التحقق من حسابه.

وكل من جاسون ونتالي ورانيا كانت أيقونة التحقق من حساباتهم متوفرة بناء على معلوماتكم، وبالتالي فليس لديّ أية معلومات يمكنني إضافتها، عدا أنهم كانوا أثناء العمل غاية في الذوق ويتمتّعون بروح فكاهية، وأعطوني زيادة عن حقي في العمل،

Scanned by CamScanner

أرجو تحرير حسابي فلديّ التزامات ماديّة في مصر.

جزيل الشكر

س

لم يتم الرد، أربع وعشرون ساعة بلا رد، دخلت على حسابي لأحوّل أموالي إلى مصر، عبّأت الاستمارة كالعادة وكتبت المبلغ، غير أن أيقونة «حوِّلْ الآن» ظلّت مطموسة، حاولت تحميل الصفحة مرة واثنتان وثلاثة، وبقيت الأيقونة كما هي، وبقيت نفس العبارة تتكرر:

تم تقييد المعاملات المالية للفري لانسر س، لمزيد من الاستفسارات يُرجي الاتصال بالدعم الفني!

ستجد على صفحة الويب:

مشاهير العذراء

صوفيا لورين، لافييت، جريتا جاربو، أجاثا كريستي.

توقّعات ميشال حايك، ليلى عبد اللطيف، كارمن شماس وماغي فرح.

يتوقّعون كيف يكون يومك في العمل والحب والصحة.

تفاءل إن بشّرَتْك النجوم، واترك أمورك لمدبّر الأمر إن كان غير ذلك؛ فالله صانع المقادير..

مهلًا أيتها الأقدار

لُمّي أطراف ثيابك، وانتبهي لموضع قدمك

فهذي رأسي، وتلك الحجرات الأربع

أسفل رفّة ثوبك

Scanned by CamScanner

حجرات القلب

وهذا السيل الدافئ

محض دمائي

فلتنتبهي!

Scanned by CamScanner

انتبه يا صديقي

سنرتطم لا محالة؛

أمامنا،

على بعد خطوتين،

حائطٌ سد !!

Scanned by CamScanner

(١٤)

فخ الاختيار

كان عليّ دومًا الاختيار بين شيئين، أو ثلاثة، أو بين عدة أشياء، ولم يكن لي يومًا أن أختار في المطلق، فانحصرت قراراتي في فعل المفاضلة، فإما أن أدخل «آداب»، أو «علوم». أعمل في التدريس، أو في التدقيق، أتزوج (واو) أو أتزوج غيره، وأخيرًا أختار بين العمل في الواقع، أو في ذلك العالم الافتراضي. وبالتدريج اكتشفت حقيقةً مؤلمة، فثمّة فئران تنهش أمعائي، فعلى الرغم من أني أعمل كفري لانسر، وبالرغم من سحر الكلمة؛ فقد فقدت حرّيّتي تمامًا، كان عليّ أن أبقى أون لاين طوال الوقت، سواء أكان لدي عقد أعمل بموجبه، أم كنت بلا عمل.

بدت لي الفرص الضائعة أثناء نومي فرصًا تستحق الندم واللوم، وكان العميل لا يمهلني وقتًا للرد، فبعد أن يرسل لي العرض والملف، ينتظر مني أن أرد في غضون ساعة، وبالتالي يلغي العرض إذا تأخّرت في الرد، ففكّرت في البقاء على اتصال على مدار اليوم، استخدمتُ باقة نت للموبايل، واخترت

Scanned by CamScanner

تنبيهًا يوقظني من عز النوم، واكتشفت بعد فترة أنني لم أعد أهنأ بنومٍ متواصل، وأن هذا العالم الافتراضي بات كالقرضة، تقرضني كلما غفوت!

تصاعد الموقف عندما ظهر في الأفق عددٌ من العملاء، كنت أعمل معهم بالساعة، وكانت ساعاتي الواحدة تساوي عمل يوم كامل في التدريس، إلا أن هذا النوع من العملاء، غالبًا ما يختار بين المتقدّمين للوظيفة بعد ساعة واحدة من الإعلان عن الوظيفة؛ لذا كان عليَّ كلما استيقظت أن أتصفح الوظائف قبل أن أعود مرة ثانية للنوم، فغالبًا ما كنت أحصد منهم حفنة هائلة من الدولارات، في يوم واحد تساوي عملي شهرًا كاملًا.

كانت نور دائمًا ما تسألني نفس السؤال:

- ماما هو انتي معانا؟

كلا، يا صغيرتي، أنا في غاية الخجل. تلك الشاشة اللعينة أظل أحدق فيها طوال الليل والنهار، وكأنّ النداهة ندهتني؛ إما بحثًا عن وظيفة، أو تنفيذًا لوظيفة، أو انتظارًا لفيدباك لعين!

كم من المرات أخطأت في تحويل حسابي، وانتظرت عودته بخوف وقلق، وبعدد وافر من الكوابيس، وحفنة لا يستهان بها من الدموع، كم عدد الرسائل التي تلقّيتها أو كتبتها خلال فترة عملي كفري لانسر، الحالات التي لم أتلقَّ فيها الدفع، واختفى العميل كأن لم يكن.

استحدث الموقع نظامًا جديدًا، حدّد لنا عدد الوظائف التي بوسعنا التطبيق لها، وأي وظيفة تتجاوز الكوتة المتاحة ندفع لها، بصرف النظر عن النسبة الثابتة التي يقتطعها الموقع من كل عقد.

والحقيقة أنني لم أسايرهم في أي دفع، كنت لا أستهلك حتى الكوتة

Scanned by CamScanner

المخصّصة لي، فبمجرد أن يطّلع العميل على بروفيلي، خاصة في الآونة الأخيرة، بعد أن وصل «فيدباكي» إلى عدد محترم، كان العميل يختارني على الفور وبلا أدني تردّد، خاصّة حينما يقرأ الجملة التي تكرّرت كثيرًا: «Highly recommended» ولم أكن أحتاج لأكثر من خمسة أو ستة عقود شهرية، وأترك بقية الكوتة المخصصة لي.

في اليوم الذي وصلتني الرسالة المشؤومة، كنت أعمل في ثلاثة عقود، أحدهما كان دليل لولي الأمر والطالب، في مدرسة أمريكية تدعي روكت شب، أرسل لي العميل الكتيب مصحوبًا بالتعليمات:

العزيزة س

أشكرك على اهتمامك بمشروعي، ونظرًا لأننا نحتاجه على وجه السرعة؛ فإن الـ deadline أسبوعٌ، وسأترك لك عدد الساعات مفتوحًا، الأجزاء المظلّلة باللون الأصفر لا تحتاج لترجمة، الرسومات الإيضاحية التي تمثّل لك صعوبة، يمكنك تركها دون ترجمة، الجمل والفقرات التي لا تجدين لها مقابلًا بالعربية يمكنك تظليلها باللون الأخضر، لمزيد من الاستفسارات سأكون دومًا متّصلًا، لا تتردّدي في الاتصال بي في أي وقت تشائين.

يومًا سعيدًا

فيكتور

Victor

عزيزي فيكتور

شكرًا على ثقتك واختيارك لي، حاليًا ليس لديّ أية استفسارات، وسأبدأ العمل على الفور، على أن تجد الملف كاملًا عندما تفتح بريدك صباح السبت القادم.

Scanned by CamScanner

أتمنى لك أوقاتًا سعيدة

س

وكان العقد الآخر من العميل إيّاه، نتالي، التي تدفع لي دون حساب، وسبب المشكلة السابقة، أما العقد الثالث فكان من مركز يعمل بتدريس الموارد البشرية. يعني المواضيع كانت ماشية فلة، زي السكينة في الحلاوة كما يقولون!

بعد التحقيقات، هاتفيًا، أشعر بالخجل عندما يحادثني أجنبيٌّ مباشرة، فنطقي مريع، غالبًا ما أظل أبحث عن الكلمات في رأسي الفارغة، وأجدها بعد انتهاء المكالمة، عندما رنّ جرس الهاتف ورأيت الرقم، أدركت أنهم أب ورك، كان الصوت يشبه صوت الآلة، ولكنّي تبينت أنه صوت بشري لامرأة أمريكية، قالت لي نفس الكلام، أية معلومات عن العملاء الثلاثة، طبيعة علاقتي بهم:

- مجرد عملاء، لا أعرف عنهم سوى الاسم والبلد، وبعض الرسائل التي تخص المهمة.

سألتني عن طبيعة المهمة التي كنت أنفذها لهم:

- ترجمة.

سألتني عن الأزواج اللغوية:

- إنجليزي عربي يا سيدتي.

- ماذا فعلوا؟

لم ترد.

- ما علاقتي بما فعلوه؟

Scanned by CamScanner

لم ترد.

- ألم يحرّروا الدفع؟

لم ترد

ولكنها أعلمتني أن العملاء الثلاثة، نتالي، جاسون، رانيا، هم عميل واحد، انتحل ثلاثة أسماء.

- كيف لي أن أعرف؟

- سأرسل لك سياسة الموقع للاطلاع عليها.

- باي.

- باي.

طلبت من الدعم الوقوف بجانبي، إلا أنهم قالوا لي صراحة أن يدهم مكتوفة، فطلبت تحويل رصيدي إلى مصر ووعدوني أن ينفذوا لي العملية في أقرب فرصة، ولكني ظللت ألاحقهم بالرسائل، مئات الرسائل لكل الجهات، فريق إدارة المخاطر، لجنة فض المنازعات، الدعم الفني، الحسابات.

وذات مساء عند الوقت الذي حددوه لتنفيذ التحويل الذي اتفقنا عليه، فوجئت برصيدي يقفز لأسفل، التعليق:

تم رد مبلغ ... لآسيا بخاري في تاريخ

رصيدك الآن.....

وفجأة قفز رصيدي لأسفل مرة تانية

تم رد مبلغ .... لبارات داون بتاريخ

رصيدك الآن.....

وثالثة

Scanned by CamScanner

تم رد مبلغ ... لسان بلو بتاريخ

رصيدك الآن .....

تم رد مبلغ ... لألكس بتاريخ

رصيدك الآن.....

أرسلت رسالة عاجلة للدعم، فريق حل المشكلات، شتمت فريق إدارة المخاطر، والموقف يتصاعد

تم رد مبلغ ... لسان فرانسيسكو

رصيدك الآن ....

تم رد مبلغ ..... ل جينج ناي

رصيدك الآن...

وعلى بروفيلي وجدت هذا الحذف، كانت كل عملية رد، يصاحبها اختفاء الفيدباك الذي تركه لي العميل، من بروفيلي.

بلا وعي مني رحت أشغل الكاميرا، أتسارع مع الزمن وأنا ألتقط صورًا، لأكبر عدد من الـ «فيدباك»، قبل أن يختفي نهائيًا:

أرسلت لنا الفري لانسر (س) مشروعًا رائعًا، مزينًا بالألوان المبهجة، أوصي بها بشدة لأي مشروع يتطلب ترجمة بين الزوج اللغوي، إنجليزي - عربي. كامل رضائنا.

فيكتور

حذف

(س) كاتبة رائعة، تتميز بخبرة واسعة، سأستعين بها بالتأكيد في مشروعي المقبل.

Scanned by CamScanner

آسيا بخارى

حذف

استمتعت بالعمل معها على مدى ثلاثة شهور، وتعلّمت من خبرتها الكثير.

جينج ناي

حذف

نالت (س) إعجاب كل الدارسين في المركز بترجمتها المبدعة، سأستعين بها مرة أخرى بالتأكيد.

هشام الكرخ

حذف

أنقذتني في مدة زمنية قصيرة، وبأعلى أداء محترف، شكرا لك (س).

سان باولو

حذف

ترجمت موقعنا بحرفية منقطعة النظير، وأرسلت نصًا منسّقًا تنسيقًا مبهرًا، وعالي الجودة، أوصي بها بشدة.

دانيال

حذف

سعدت بالعمل مع تلك المرأة الرائعة، فقد اعتمدت عليها في تجميع المشروع بأكمله، وكانت أهلًا للثقة.

سمير جويس

حذف

Scanned by CamScanner

كنت كالطاووس الذي ينفض ريشه، مع كل فيدباك يفر من بروفيلي، وفجأة، اختفى البادج الذي كان يتوّجني، Top rated، وأخذت ألمّ ذيلي الذي كنت أفرده بزهو!

نحن الآن قاب قوسين
غير أن البيوت في أماكنها
والعربات تمر من خلفنا
والعلامات التي اتّبعناها
وشددنا إليها الرحال بعلب فارغة
لم تكن لنا!

أرسلت لي أب ورك رسالة توضّح الموقف، لم يكن الحكم لصالحي، تم رد جميع عقودي بين العقود الثلاث السابقة، من كِلْتَا الجهتين، فريق إدارة المخاطر، ولجنة المنازعات، وبقي لي لديهم ٥٠٠ دولار، فما الوسيلة التي أفضّلها لتحويل هذا المبلغ، كما لا يفوتهم أن يتمنّوا لي مستقبلًا مهنيًّا في موقع آخر، دون الخوض في أية تفاصيل، توضّح طبيعة الانتهاك الذي قمت به. وأوصوني بعدم فتح باب المناقشة في نفس الأمر مرة أخرى، فالأمر جد خطير وليس من مصلحة أحدنا فتح الموضوع مرة أخرى، ولن يفيدني الكثير معرفة السبب؛ لأنه من الاحترازات الأمنية التي قد تشجع على اختراق الموقع.

أغلقت أب ورك حسابي إلا أنني كنت أتسلّل بين الحين والآخر وأدخل

Scanned by CamScanner

على بروفيلي فتلجمني العبارة التي ظلّت عالقة إلى الآن، أعلى الصفحة داخل مستطيل أحمر،

تم تقييد المعاملات المالية للفري لانسر (س). لمزيد من المعلومات أو الاستفسارات يرجى الاتصال بالدعم الفني!

Scanned by CamScanner

(١٥)

فيدباك السماء

دخلت (أحمر) على أمنا بالحنجل والمنجل، عندما مات أبي، بقيت أمي في البيت وحيدة، وكلما زرناها أنا وأخواتي، تشرع في البكاء والعويل:

- ياولاد انا بكلّم الحيطان.

كنت أتمزق إربًا لحالها، ولكن ما العمل، لا طاقة لي بها، أخذت درسًا بالقرب من بيتها، حتى أتمكّن من زيارتها مرتين في الأسبوع، فانقلبت حياتي جحيمًا، لت وعجن وقال وقالت، والحقي ويا مصيبتي، حتى أُنْهِكْتُ، اعتذرت عن الدرس واقتصرت!

أنا وأخواتي الخمس لم نكن نكف عن الشجار، دائمًا ما يثرن المتاعب ودائمًا ما كنت أتعك رغمًا عنّي، تفلت مني كلمة صغيرة، تصرف ناقص، وسط تلك المهازل، صلّيت واستغفرت وبكيت، ولكني اليوم فعلتُ فعلتي الكبرى، صرخت لأول مرة في وجه أمي، ليس في وجهها تمامًا، كان ذلك في التليفون.

أختي (أحمر) سامحها الله وعفا عنها، بنت لذينه، أوقعتنا جميعًا في

Scanned by CamScanner

التهلكة، منذ أن عادت هي وزوجها البأف من السويس، وهي لا تني تثير المشاكل، بدأت بي، كانت لديها بعض التنغيصات من قربي من أختيّ الصغيرتين، (كربوناتو) و(دقدق)، ذات يوم نادى عليّ أبي وأمي، كانا يجلسان على سطح منزلنا، فلديهم مواهب في تربية الدواجن، لم يتخلّيا عنها منذ أن هجرا الريف، أذكر زوجة أخي وهي تريني الدود المتساقط عليها من السطح المعرش بالبوص:

- شوفي، يعجبك كده، حد يربي بط فوق العرش، الدود بينزل علينا واحنا نايمين.

حاولت مع أبي، يهديك يرضيك، ده ابنك ودي مراته، وانت خالها، لماذا نؤذيهم؟

أبي لم يقتنع، من جهته لم يقترف ذنبًا، يحب البط وهيربّي بط، واللي مش عاجبه يعزّل.

المهم أن أبي عندما نَدَه عليّ كان يريدني في خدمة:

- خير يا با ع الصبح.

- البت (دقدق)، صرفنا عليها دم قلبنا زي ما انتي عارفة.

عارفة ودافعه، طبعًا في سرّي.

- أيوه وبعدين.

- مش اتخرَّجِتْ.

- تمام.

- قوليلها يا حبيبتي تدوّر لها على شغلانه بدل ما بتفضل نايمة للعصر.

- حاضر يا بابا.

Scanned by CamScanner

طرحت الفكرة على (دقدق).

- يا حبيبتي شوفيلك شغلانه، انتي معاكي دلوقتي بكالوريوس تجارة.

أطرقت (دقدق) ويبدو أن فكرة الشغل لم تكن تروق لها؛ ففضفضتْ لـ (أحمر)، و(أحمر) مشكورة قالت لها بخبث:

- تلاقيها مش عايزة تدّيكي الفلوس اللي بتدّيهوملك كل شهر!

حتى تصاعد الموقف عندما راجع أبي موقفه من موضوع شقتي ذات ليلة مفعمة بالضمير لم تكن لتخطر لي على بال:

- (بنأة) افتحي.

- حاضر يا بابا.

فتحت الباب فوجدت أبي بوجهٍ صاف في صحبة أمي وكأن الله زارهما في المنام:

- خير يا بابا.

- أنا عايز أكتب لك عقد جديد للشقة، أنا راجعت نفسي في الموضوع ده ولقيت إني كده بأكِّلِك لاخواتك.

- يعني هتعمل ايه؟

- هكتبلك عقد ب١٠٠ جنيه إيجار بس، هو أنا ليه خلّيتك تدفعي الايجار ده، انتي يا بنتي بنيتي فوق وتحت، وضّبتي شقّتنا، وبنيتي شقّتك، ودخلتي يا ولداه من غير جهاز. اقترب أبي وقبّلني في جبهتي:

- حقِّك عليَّا. كمان هاكتبلك على ضهر العقد إن انتي وجوزك اللي بنيتوا الشقة طوبة طوبة.

ابتهجت بالطبع، اعتذر أبي عن موضوع الخلو اللى خده مني في البداية:

Scanned by CamScanner

- يعني بدل ما اساعدك آخد كمان خلو رجل، أكيد كنت محتاج الفلوس قوي، اوعي تزعلي مني.

كنت أعرف أن أبي لم يكن محتاجًا لأي فلوس

ولكني لم أردّ، لم أشأ أن أفسد نقاء اللحظة الفريدة، اشترط أبي ألا أخبر أخواتي، قال لي سأقول لهم ولكن بطريقتي.

وفي لحظة نحس أخبر أبي أخواتي وأنا ابتسمت لهم بحياء:

- آه والله، تخيلوا أباكم صحا ضميره!

أذهلني تربُّد وجوههن المفاجئ ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة، وفوجئت بهم بعد أسبوع من هذا الحدث، كنت نائمة بعد ليلة هنيئة مع (واو)، فاستيقظت على ضجيج من الأصوات المختلطة، لم أستَبِنْها أول الأمر، ولكني أنصت:

- السهتانة هي وجوزها ضحكوا عليك.

- عشر تلاف لما يلهفوها.

- بكره تكتب لها البيت كله.

- قووم، قووووم اكتب لنا الباقي بدل ما تضيعوا بهبلك.

نزلت السلم دون أن أغسل وجهي، عمّن يتحدثن؟، لا شك أنا الستهانه، دخلت عليهنّ، فطرفت أعين (دقدق) و(كربوناتو) لوهلة، ثم استعادت شررها كالجميع، شرحت لهم ما حدث:

- كُتّيمِي يعني، لو كان حقّك كنتي خدّتيه في النور

- أبوكو قاللي....

- بلا قالك بلا عادلك، كنتي عملتي إيه عشان يكتبلك عشر تلاف جنيه.

Scanned by CamScanner

- ما انا مش هخدهم دلوقتي، ده لما البيت يتباع.

فوجئت بأصابعهم التي أشهروها معًا في نفس اللحظة وكادت تخترق عيني:

- احنا مش هنسكت.

جذبني أبي من وسطهم، وحدفني على السلم.

- اطلعي انت، صوتك راح، أنا هافهّمهم.

- خايف عليها يا خويا طب اشبعوا ببعض.

حاولت استرضاء أخواتي فلم أفلح، كانت (أحمر) وزوجها قاما بالواجب على أكمل وجه، قطعت العقد فكتب لي أبي عقدًا آخر، وظلّت المشكلة قائمة لشهور، كِيلتْ لي شتي أنواع الاتهامات، وعيد وزيد في مسألة دهائي، حتى ظننت أني شيرلوك هولمز، (هُل) أرسلت لي لتستعيد الشيك الذي كانت تحتفظ به عندي، كانت قد سرقته من زوجها لتكسب أرضًا أو تفاوض عليه وقت الجد، زوجها فلاتي، وخاين بطبعه، وعندما تكرّرت غضباتها، قالت أؤمِّن نفسي، هل توجَّستْ منّي شرًّا؟

- إلا لو عملت حاجه بالشيك اللي معاها، يا لهوي.. أنا عايزة الشيك دلوقتي.

نجحوا في إقناع أبي بأني استغلّيتُ عماه، ومضّيتُه على البيت بأكمله:

- بيقولوا إن ما كانش في قرض ولا يحزنون، انتي جبتي ناس وقلتي عليهم موظفين، والورق اللي مضيت عليه على إنّي ضامنك في القرض كان عقد بيع البيت، شوفي مكر اخواتك، وابتسم باستنكار.

وفي منتصف الليل نادي أبي:

Scanned by CamScanner

- (بنأة)، (بنأة).

- أيوه يا بابا.

ظهر على أبي الخجل لبرهة، ربما من كلمة بابا، ولكنه استعاد توازنه بسرعة:

- كنت عايز ورق القرض مش انتي خلاص سددتيه!

اليوم، وبعد كل تلك السنوات تستغل (أحمر) مسألة وجود أمي وحيدة، وعايزة تقعد معاها في البيت، كتبت أمي لها عقدًا بعشرين سنة، ومش هتاخد منها لا أبيض ولا اسود فصرختُ في أمي في التليفون:

- هو بيتك عشان تسَّكِنيه، ده بيت ورث واحنا الورثة وبنقولك لأ.

- يا بنتي انا قاعده بطولي، بكلّم الحيطان.

- بقولك لأ، انتي هتلبّسينا في (أحمر) وجوزها، ثم انتي هتعيشي ٢٠ سنة؟

فأر ظلّ هادئًا في صدري، ولكني كنت أحس به، طبعًا أمي أغلقت السكة في وجهي، ولها الحق، وفي الليل تحرّك الفأر، حركة والتانية ووجدتني أنزف على السجادة، من أثر الأسنان الحادة،

- ربّي، إلهي، خالقي، أخرجني من هذا الموقف، ولكن السماء لها حسابات أخرى ماتت أمي بغضبتها وفقدت أهم فيدباك!

Scanned by CamScanner

فيدباك

نور..

التجربة الفريدة التي لم أكن أجرؤ على تكرارها، وأنا أعيش على هامش الحياة، ظللتِ بأصابعك الصغيرة الهشة تحاولين سحب قدميَّ العالقتين، ربما لم تظفري بنتيجة، كان المدُّ عاتيًا يا صغيرتي، وكنت أبدو لك كشبح، كله في الداخل.

استقبلت وجودك داخل رحمي بغضاضة، وصعقتُ عندما سمعت الطبيب وهو يستكشفك بداخلي ويمتحن الممرضة الواقفة قرب بطني توزِّع سائلًا لزجًا، يسمح بحرية حركة ذلك الشيء الذي يشبه الماوس، بدا صوتها مترددًا، وهي تقرر:

Female -

مادت بي الغرفة الصغيرة، وليس هذا لأني أحترم الذكورة، بل لعلّها سقطت في نظري منذ زمن بعيد، ولكنه الرعب، من نفس المصير؛ مصيري القلق في

Scanned by CamScanner

الذود عن الأنثى، عمرًا أفتش وراء أخواتي، وكلّي هلع أن يصيبهن مكروه، أظافرهن الناعمة لم تكن لتصلح لخمش الآخر، وإن خمشتني مرّات!

استقبلتُكِ بصرخة، لم أحتمل ألم الولادة كبقية النساء، تركتك لحمة حمراء في يد أمي، ولكني لم أكن أملك خيارًا أمام تبعات الحياة!

حاولت أن أؤمِّن لك حياة مقبولة، وعدت كما ترين بخفي حنين!

(واو)، طيف من زمن جميل..

كيف لنا أن نكتمل وسط هذا الضجيج، أنا وأنت يا صديقي مجرد دميتَيْن تحرِّكهما يد السماء!

(هُل)، (قهر)، (أحمر)، (كربوناتو)، (دقدق)؛ بنات أبي:

عذرًا، لم تزل أصابعكن كما السكين، تهتزُّ كلَّما التقينا في حبَّة القلب!

Scanned by CamScanner

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

الشخصيَّات والأحداث من خيال المُؤَلِّفة،
وتشابُهها مع الواقع مَحْضُ صُدْفَةٍ.

هذه روايةٌ من النَّوْعِ الذي يلتهِمُه القارئُ في جلسة واحدة، وليس فقط لأنَّها قصيرةٌ نِسْبيًّا، فقد كُتِبَتْ الرواية بقدْرٍ كبير من السَّلاسَة، حيث اتَّبعتْ كاتِبتُها أسلوبَ "تيَّار الوعي" (stream of consciousness)، الذي اشتهر به روائيُّون كبار، من أمثال مارسيل بروست وجيمس جويس وفرجينيا وولف؛ حيث أن الرواية كلها تتبع انسياب الأفكار الخاصَّة في أذهان الشخصيات. وعليه؛ فإن هناك صراحة كاملة في التعبير عن النفس، ولا تتورَّع كذلك عن حكايةِ أخصِّ المشاعِر، وإشراكنا في مشاهد ذات طبيعة فضائحيَّة.

أسلوب تيَّار الوعي يُتيح بطبيعته مَجالا للتَّهْويمات والتَّفَلْسُف، وهو جانبٌ استغلَّتْهُ الرَّاويَةُ في بعض المَواقِع في الرواية، ودخلتْ في تأمُّلاتٍ في الحياة والكون ومصير الإنسان، لم تَخْلُ من شَطَحاتٍ في أمور الدِّين، رغم طبيعتِها المُتَديِّنة.

د. إيمان عباس حسن النُّور
كلية الآداب
جامعة النيلين

غلاف عبد الرحمن الصحاف
9 789778 480049
منشورات بنانة